الضَّيَاع

الكتاب:الضياع
المؤلف: أحمد رضوان
تصميم الغلاف: د. أحمد جمال عيد
تدقيق لغوي: عبد الهادي عباس
إخراج فني: سُكون
رقم الإيداع: 284010/2017
ردمك: 978-977-6549-45-6
الطبعة الثانية: 2018

المدير العام: هالة البشبيشي
المدير التنفيذي: شريف الليثي

تويا
دار تويا للنَشر والتَوزيع

(+2) 01140899887
(+2) 01000706014
dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر والتوزيع dar.toya
@Dar Toya
@Dar_Toya
٣٥ شارع النصر..
المعادي الجديدة نوفمبر ٢٠١٧

أحمد رضوان

الضَّيَاع

قيثَارَةٌ على ضِفَافِ نَهْرِ التَّايِمز

راواية

تويا للنشر والتوزيع

إهداء إلى..

قيثارة العطاء ، الحزينةُ أوتارها.. تلكُم الأرواح التي تئن في كل مساء ، حين يغفو ضوء النهار على مَخدع الليل ، مخلفًا أشباح الوحدة تلهو ببقايا القلوب المنكسرة.. والتي تتعانق في صمت ، وتهمس للدنيا لحنًا حزينًا ، يبعث في البقايا المتهالكة بعض حياة. تُلهِم الحائرين ، فتمنحهم فيضًا من نور.. فتقيمهم تارة ، وتمد لهم اليد تارة أخرى.. ليكملوا رحلتهم ، غير عابئين بمشقة الطريق.

روح على الدرب

هـي الأقـدار، ترقـب سـيرنا دومًـا، وليـس فيهـا مـن خيـار... ولا نملـك منهـا سـبيلًا للفـرار.. وليـت الـدار تتـرك كفَّـــنَا يومًـا، فنرحـل عنهـا ونجفوهـا... غيـر أنَّـا قـد مكثنـا ضائعيـن، وليـس يغيـر الأقـدار شـيء.. وذا قـدر المسـاكين!

حين هبطت الطائرة في مطار هيثرو، لم يكن أحمد قد هيأ نفسه لتلك البرودة التي اخترقت عظامه فجأة وعلى غير موعد، خاصة أنه اعتاد في عالمه الذي خرج لتوه من براثنه، أن هذا الوقت من العام يأتي بحرارة شهر مايو الدافئة، تمهيدًا لقسوة الصيف. ولكي تكتمل المفاجأة، فقد توقفت الطائرة على الممر، بعيدًا عن صالة الوصول، وفي درجة حرارة لم تتعد الثمانية، وقد بدأت الرياح تشتد. كان عليه أن يقف منتظرًا دوره ليستقل حافلة المطار، مرتديا ذلك القميص الخفيف، الذي لا معنى له في ذلك الجو، لكنه كان يخبر نفسه، وأسنانه تصطك ببعضها، أن كل شيء يهون وقد اقترب ذلك الحلم اللذيذ الذي طالما راوده، والذي يبعث الدفء في روحه.. لندن المدهشة، وجميلات البيكاديلي، وسينما أوديون.. فياله من حلم!

وصل إلى ذلك الفندق المتواضع، الواقع بالقرب من منطقة البيكاديلي، والذي يشبه المساكن الخشبية القديمة، بتلك الطقطقة التي يصدرها السقف عندما تطئه قدم، والذي ذكَّره بالقصر القديم الذي تحول إلى مدرسة النهضة في حي شبرا، تلك المدرسة الجميلة، التي تعلق بها لعدة أيام، قبل أن تختفي من المشهد تمامًا في فترة مراهقته، وذكريات يحمر وجهه خجلًا عندما تقفز إلى عقله من مخبئها خلف جدر الذاكرة. أول ما فعله عند وصوله، أن القى حقائبه فوق ذلك السرير الفقير، ذي الغطاء الأبيض، في تلك الغرفه الباردة في الطابق الثاني، وخرج من فوره متجهًا إلى "لندن البلد"، كما كان يطلق عليها مجدي. لم يلتفت لصوت حذائه

فوق الأرضية الخشبية للغرفة هذه المرة، بل لعل الذاكرة قد انتوت أن تفسح المجال للحاضر وما ستلتهمه عيناه من مشاهد توشك أن تخرج إلى النور من قبو المستقبل الغائم. كان أول ما لفت انتباهه حين خرج من باب الفندق الخشبي البِّني العتيق، هو ذلك الشاب الذي غاب عما حوله، وهو يقبل فتاة، مستندًا على حائط محطة الأتوبيس الزجاجي، والذي تخفيه بكامله إعلانات العاهرات، حتى كاد يفقد توازنه وينزلق على الثلاث درجات التي تفصله عن أرضية الشارع. لم تكن تلك قبلة أبدًا، لقد كان يلتهمها في نهم كجائع وجد طعامه بعد حرمان. عض أحمد على شفتيه، محدثًا نفسه وهو يفرك يديه من شدة البرودة: «مرحبًا وسط البلد الراقص».

أسرع يسارًا، متجًا إلى محطة مترو «توتنهام كورت"، الموجودة في شارع أكسفورد الجديد ،بالقرب من تقاطع هاي هلبورن. وهناك، اتجه من أسفل المبنى الزجاجي يسارًا ثم يمينًا، قريبًا من تجمع المطاعم. على مسافة قريبة، وجد تجمعًا للفتيات، بملابس تنحاز إلى طبيعة الأنثى المتفجرة، وتضرب عرض الحائط ببرودة الطقس. بدأت الحرارة تسري في أوصاله، وبدأ البرد الذي يضرب عظامه ينهار فجأة.. فحدثٌ ما على وشك أن يبدأ. عبر الشارع كمهرج في سيرك، فلم يكن قد اعتاد بعد على نظام المرور في شوارع لندن. بزغ لتوه شعور بالخجل، جراء عبوره الشارع بطريقة بهلوانية، ومر بتجمع الفتيات على عجل، وقد لمح بجوارهن بعض المحلات التي تبيع الأدوات الخاصة بالعلاقات الحميمية، والتي كانت تُعرض خلف الواجهات الزجاجية، وتعرضها بعض الفتيات بداخل تلك

الفاترينات، في ملابس شفافة تظهر أكثر مما تخفي. ارتفعت درجة حرارة الجو فجأة، أو هذا ما أشار إليه ترمومتره الخاص.. ولم يشعر أحمد بنفسه وهو يتأمل المشهد الجديد كليًا عليه، إلا وصوت صفير مرتفع يصدر من شفتيه..

- أول القصيدة!!

اختلس النظر حوله خجلًا من أن يكون أحد قد سمعه، وفهم أنه جديد على تلك الأشياء.. "محدث نعمة"! انحرف يمينًا، إلى داخل طرقات سوهو الضيقة، وقد رصت الطاولات البلاستيكية على جانبيها، والتي ذكرته بكورنيش النيل وكورنيش روض الفرج. لفت نظره أن العديد من الشاب قد جلسوا، وأمامهم وضعت زجاجات البيرة وأحدهم تجلس على فخذيه فتاة يقبلها أو يداعبها أمام الجميع، في مشهد يقلب معاييره رأسه على عقب، جاعلًا إرثه الثقافي أثرًا بعد عين. سابقا، كان يعتقد أن الفتيات فقط للتقبيل والعشق، ولكنه أدرك حقيقة جديدة أن الفتاة هنا في البيكاديلي تُشرَب وتؤكَل، وكان هذا اكتشافًا جديدًا بالطبع، لم يدركه من قبل.

أوشك الحظ أن يبتسم يا ولد! هكذا حدث نفسه، فما هي سوى دقائق معدودة وحتى تكون إحدى الجميلات رفيقته طوال الرحلة. لما غواه ذلك الحلم، دخل أول صالة ديسكو صادفته.

من المناسب أن أخبركم أنها المرة الأولى له في صالة ديسكو؛ فبعض القناعات التي حيينا بها دومًا لا تصمد أمام الاختبار الحقيقي لها، فنكتشف فجأة الفجوة بين ما نحياه بحكم الاعتياد،

وما لسنا نؤمن به في أعماقنا، رغم أننا نتشدق به للآخرين، عندما نرتدي عباءة الحكمة، ونملأ الدنيا صياحًا بالحلال والحرام والعيب.

ضائعٌ من يحمل إرثًا فوق كتفيه لا يتعانق مع روحه، ولا تنتمي له خلجاته. حين تعبث بنا الحياة، تجذبنا نحو أحد الخيارات العشوائية، ثم تباغتنا فجأة. كان أول ما وقعت عيناه عليه بالداخل رجل يقبِّل زميلًا له. كان مشهدًا مقززًا، يفسد حلمه الوليد. لكنه لم يتوقف كثيرًا عند ذلك، كونه قد هيأ نفسه أنه يجوب عالمًا يختلف كليا عن عالمه الذي أتى منه. أخفى شعوره بالاشمئزاز خلف جدار مصطنع، مردًا بينه وبين نفسه:

«كل لندن كده»

وقف يشاهد الراقصين بجوار تلك الفتاة، التي كانت ترتدي ملابس سوداء جلدية أشبه بملابس السباحة، التي تكشف الكثير من جسدها البض، وتتلوى كأفعى يافعة منزلقة فوق خشبة المسرح، مداعبة أهداب الرغبة لدى المتفرجين. دقائق قليلة كانت تفصله عن حدث مفاجئ.. لقد باغتته فتاة تحتضنه من الخلف، باعثة الدماء إلى جميع أطرافه، وداعية قلبه إلى مجون دقاته، التي كانت تسمع من عين لندن. ردد في نفسه:

«يا حريمك يا لندن!»

ثمة لحظات في حياتنا تولد وتموت، ولكن يبقى أثرها حتى يوم رحيلنا الأبدي. كان ذلك هو الحضن الأول له طوال حياته، وبدا أن الحلم الدافئ يسحبه نحو عالم مغاير. استدار مواجهًا تلك الفتاة،

مُمنيًا نفسه بإحدى الشقراوات. تراجع الدفء متحولًا إلى صقيع، كقطعة من براري سيبريا!.. لقد تحولت الفتاة صاحبة الحضن الدافئ.. وكأن جميع تمائم السحر الأسود قد أصابتها.. لعنتها فجأة، فإذا هي رجل ضخم مفتول العضلات، أصلع الرأس، ويتدلى قرط صغير في أذنيه!.

قهرت الحقيقة الحلم، فتراجع مترنحًا تحت قبضتها المميتة.. قفز أحمد بسرعة جِنيّ يتسابق ليحضر العرش لسليمان، أو كرجل يكاد يمسه عفريت من الجن، وهو يفر محاولًا النجاة بنفسه، صارخًا بأعلى صوت.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

دو يو ماري مي

لم تكن سهلة أبدًا على أحمد حادثة الهروب الكبير من ذلك الحضن الرهيب، وتضييع الفرصة على ذلك الأصلع صاحب القرط، الذي تخالف طلعته طبيعته. لقد أقسم مرارًا وهو يلهث تعبًا من الجري تلك الليلة ألّا يعود إلى ذلك الشارع أبدًا، ولا يعبر طرقات سوهو مرة أخرى. كان الجوع قد بدأ يعوي وينهش معدته، ويذكره أنه لم يتناول طعامًا منذ الصباح، سوى ذلك الذي قدمته له المضيفة الإنجليزية العجوز على الطائرة، والذي لم يشغل حيزا مذكورا من معدته.

لم يكن مجدي قد أخبره أين منطقة المطاعم، والتي يقدم بعضها طعامًا لا شبهة فيه. عرف خلال رحلته أن هناك علامة تجارية اسمها "حلال"، توضع دومًا لجذب الزبائن المسلمين، يبحث عنها رواد سوهو، الذين هم أنفسهم من يبحثون في نفس الوقت عن فاتنات البيكاديلي، وما أقسى ضياعهم بين النقيضين. لقد انصبت

إرشادات صاحبه مجدي على ملذات النفس، ونسي حاجات البطن الأساسية.

بدأت رحلة البحث عن مطعم، حيث الطعام لمن لم يخبر السفر من قبل هو مأساة في حد ذاتها، فما بالنا وهو يبحث في شوارع لندن في البيكاديلي، بعد فشل ينذر بأيام قادمة لن تكون أبدًا ما تمناه. عاد إلى شارع أكسفورد الجديد، وبعد شارع المتحف بمسافة قصيرة حالفه الحظ، حين صادف تجمعًا للمطاعم المتجاورة، في منطقة تجارية مزدحمة بالشركات.

ولكن مشكلته لم تحل بعثوره على المطاعم، فقد جدت معضلة أنه لا يعرف ما تقدمه تلك المطاعم، ولا يدري كيف يختار من قائمة لا يفهم منها شيئا. قرر أن يتوجه إلى أحد المطاعم التي تقدم الأسماك، بنظام البوفيه المفتوح. وبالفعل، وجد مطعمًا صينيًا، وبسعر لم يتجاوز العشر جنيهات استرليني، وقد دوِّن السعر باللون الأبيض على واجهة المطعم الزجاجية، وكان مبلغًا زهيدًا بالنسبة لوجبة بحرية مفتوحة الكميات. وقف يراقب المطعم والرواد لعدة دقائق قبل أن يدخله، فالدرس الذي لقنته اياه شوارع سوهو سيظل ماثلًا أمام عينيه، وآثار الحضن الدافئ مازالت على ظهره. ولما وجد أن الأمر هادئ بداخل المطعم، قرر الدخول أخيرًا. كان محظوظًا هذه المرة، فقد كان اختياره جيدًا، ورائحة الطعام المعد على الطريقة الصينية نفاذة، ومنظر الطعام رائعًا.

رحبت به فتاة كورية تعمل في المحل، وكانت رائعة الجمال. تلك الابتسامة المرحبة التي منحتها له الفتاة، حركت مشاعره بدرجة

كانت كافية أن تدفعه للجلوس على أقرب طاولة، وعيناه متعلقتان بتلك الفتاة، التي كانت أقرب لملكات الجمال منها لعاملة في مطعم. ود لو أنه أجلسها وقام هو ليحضر لها الطعام. حدث نفسه قائلًا:

«لا داعي للسلاطة..»

أسرعت الفتاة، فأحضرت له طبقًا، ورافقته إلى البوفيه، والذي كان يقع على يمين المدخل، وساعدته في الاختيار، وهي تقف ملامسة له عند الأطباق الكبيرة التي رص فوقها الطعام، في ذلك المكان الضيق، الذي لا يتسع لهما معًا. عاد لطاولته، وراح يتناول طعامه وقد تنبهت حواسه، وبصره منصب على مراقبة تلك الفتاة الجميلة. أدركت هي اهتمامه بها، فراحت تبادله النظرات والابتسامات الرقيقة. لقد كان أحمد صاحب قلب أخضر، تداعبه ابتسامة مرحبة من فتاة، أو ضحكة فاتنة من لعوب، ولم يبدُ أنه قد وعي الدرس السابق بعد، لذا راح قلبه ينبض بصوت مسموع، وتسارعت ضرباته ترقص وهو يرى أن لندن ستبتسم له هذه المرة، وخاصة أن المكان هادئ، فقط طعام ونادلة وزبائن، ولا يوجد أي خوف من أن يحدث شيء يعكر عليه تلك العلاقة - كما كان يعتقد - التي بدأت للتو مع تلك الفاتنة الكورية.

لاحظ من قبل أن أغلب الفتيات والشباب في شوراع لندن يرتدون أحدث ما تنتجه أشهر بيوت الأزياء، ولم يكن يدري أن هذا الأمر ينطبق أيضًا على تلك العاملة في مطعم، والتي كانت ترتدي ملابس للعمل على أحدث صيحة. ملابسها تلك سببت له مشكلة، فالفتاة كان ظهرها يتعرى بالكامل، كلما انحنت لتحضر

بعض الأطباق من الرف السفلي أمامه مباشرة. كانت عيناه تتسمران عندما يحدث ذلك، وتنتبه حواسه. والغريب، أن الفتاة كانت تلاحظ ذلك، وكانت فقط تبتسم، وكأنها تشجعه على تكرار ذلك؛ أو هكذا كان يحدث نفسه.

أنهى طعامه، وطلب الحساب من ذات الفتاة صاحبة الابتسامة الساحرة والظهر العاري، والتي وضعت على شفتيها ابتسامة أخرى لا تقاوم، وهي تناوله فاتورة الطعام، فأحالت ما تبقى لديه من تماسك إلى أشلاء، وبعثرت بعضه فلم يعد قادرًا على التحكم في نبضات قلبه، ويكاد يبتلع ريقه بصعوبة. وحين نظر في عينيها، أصابته سهام الهوى قبل أن يسألها وهو هائم...

«دو يو ماري مي؟!!»

ابتسمت الفتاة وهي تتلقى طلب الزواج العجيب والساذج هذا، وجلست أمامه وسألته عن اسمه وجنسيته، وعن عمله. وبدأ الحديث يطول، وهو يكاد يطير من الفرح، أنه قد يتزوج تلك الفتاة الجميلة. كان الساذج يعتقد أن العلاقات تعبر من ذلك الطريق فقط. أعطته الفتاة عنوان بيتها، ورقم الجوال الخاص بها، وطلبت منه أن يأتي لزيارتها في المنزل، فهي لا تستطيع الجلوس إليه أكثر من ذلك بسبب العمل. دفع الحساب، ومنحها عشرين جنيهًا لها. ابتسمت الفتاة وهي تضعها في جيبها وتقول:

«سي يو تونايت دارلينج»

قبل الموعد المتفق عليه بربع الساعة، كان يقف أمام بيتها،

والـذي يقـع في شـارع هـاوس رايـد، المتفـرع مـن شـارع ريجنـت، عنـد التقاطـع مـع شـارع اكسـفورد، بعـد الخـروج مـن محطـة مـترو اكسـفورد سـيركيس، وتحديـدًا بعـد جامعـة ويسـت مينيسـتر بقليـل. انتظـر أمـام المنـزل، محـاولًا الاحتمـاء مـن المطـر والـبرد حتـى الموعـد المحـدد. وبـكل اللهفـة، ضغـط عـلى جـرس الشـقة رقـم تسـعة وخمسـين، كـما أخبرتـه الفتـاة، وكان قـد اشـترى لهـا هديـة وبوكيـه ورد، دفـع فيهـما مائـة جنيـه اسـترليني.

لحظـات، حتـى سـمع صـوت القفـل الكهربائـي، لمـا فتحـت الفتـاة لـه البـاب الرئيسـي مـن الأعـلى. كان قلبـه يسـابقه في القفـز عـلى درجـات السـلم إلى الـدور الأول. وعندمـا اقـترب مـن الشـقة، لم تمنحـه الفتـاة الفرصـة كـي يضغـط الجـرس، فقـد فتحـت لـه البـاب، وأطلـت مـن ورائـه فقـط بوجههـا الجميـل، وهـي تـداري باقـي جسـمها، خلـف البـاب الواقـع إلى يمـين المصعـد. أشـارت لـه بالصمـت، حتـى لا يصـدر صوتًـا، وهـي تشـير إلى بـاب الجـيران. لم يتوقـف عنـد ذلـك، ودخـل في هـدوء، فوجدهـا تقـف خلـف البـاب بملابـس النـوم الشـفافة. وصدقًـا، لم تكـن تلـك الثيـاب لتصلـح للنـوم أبـدًا، بـل لم تكـن تلـك من الأسـاس لتوصـف بأنهـا ملابـس، فقـد كشـفت كل جسـد الفتـاة.

ذلـك المشـهد جعلـه يتسـمر في مكانـه، وهـو لا يتمالـك نفسـه. جلـس عـلى أقـرب مقعـد قابلـه في الصالـة الضيقـة، حيـث شـقق لنـدن كلهـا ذات مسـاحات صغـير جـدًا. كانـت مسـاحة تلـك الشـقة لا تزيـد بـأي حـال عـن خمسـين مـترًا، كـما قدرهـا هـو. ذهبـت الفتـاة لتحـضر لـه شرابًـا، ولمـا عـادت سـألها إن كان معهـا أحـد في الشـقة، حيـث إنـه

سمع بعض الأصوات صادرة من إحدى الغرفتين المفتوحتين على الصالة. ابتسمت الفتاة قائلة:

- أنها زميلتي في الشقة، ولكن معها «كستومر».. بت أي ام فري.

لم يكن أحمد في موقف عقلي ولا جسدي واعٍ، ليدرك معنى ما أخبرته به للتو، وخاصة أنها أنهت تلك الجملة بابتسامة جعلته ينسى السؤال. لقد أصابت قلبه للتو بسهام عينيها ومفاتنها المعلنة عن نفسها، فتناول كوب الماء الذي أحضرته بكف مرتعشة، وهو لا يرفع عينيه عنها.

ما هي سوى لحظات قليلة، وأدرك الساذج ما يحدث حوله، لما فتح الباب وخرج منه رجل في منتصف الأربعينات من العمر، يحتضن فتاة أسيوية، وكلاهما عارٍ تمامًا!... فجأة، قفز أحمد منتفضًا من على الكرسي وقد كاد أن يصطدم بالسقف، وألقى بالهديه والورد في وجه الفتاة، وجري ناحية الباب والفتاة تتعلق بملابسه وهي تسأل ضاحكة:

- ألن تتزوجني؟!

جاءها الرد بالنفي، وقد سحب ملابسه بكل قوته، كمن لسعته أفعى، وهرب بسرعة الصاروخ وهو يصرخ بأعلى صوته...

«نو ماري.. نو ماري»

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

فراخ بانيه

هـرب أحمـد مـن الفاتنـة الكوريـة، والتـي كانـت بحـق رائعـة الجـمال، كقمـر هـلَّ مـن خلـف السـحابات في ليلـة معتمـة. كان قـد منى نفسـه أن قطـرات نـدى قـد بللـت قلبـه، الـذي جـف منـذ سـنوات؛ لكنـه تلقـى درسًـا قاسـيًا. إنـه يعـترف الآن أنـه قـد ذهـب بعيـدًا بعرضـه الـزواج. لاحقـا، سـنعرف لمـاذا أقـدم عـلى ذلـك بهـذة السرعـة والسـذاجة؛ لكـن الأهـم أنـه قـد نـوى ألا تـزوغ عيناه ناحيـة فتيـات لنـدن مـرة أخـرى. أعتقـد بعـد تجربتـين صادمتـين، تتابعتـا عـلى حلمـه بسرعـة الـبرق، أنـه لـن يحالـف حظًـا في هـذه البقعـة مـن العـالم.

ترى.. هل سيبقى حظ رحلته هكذا، أم سيتغير.. إلى الأفضل؟

وبعيـدًا عـن أحلامـه بفتيـات بيكاديلـلي، فقـد شـغلته الآن مشـكلة حقيقيـة، أهـم مـن متابعـة الجميـلات. منـذ أن هبـط في مطـار هيثـرو، والمطـر ينهمـر بشـكل متواصـل، والنـاس في لنـدن - كـما لاحـظ -

يتعاملـون مـع الأمطـار كأمـر عـادي، وكل منهـم يحمـل إمـا مظلـة أو معطـف واق مـن المطـر، ولا يمنعهـم البلـل مـن الاسـتمتاع بحياتهـم، وعنـاق فتياتهـم في المتنزهـات، أو عـلى شـاطئ النهـر، وحتـى في محطـة المـترو. لكـن أحمـد لم يعتـد مثـل تلـك الـبرودة.. مجـدي فاتـه أن يخـبره عـن أمـور كثـيرة.. نـسي مثـلًا أن يخـبره عـن هـذا الطقـس القـاسي، ولم يحـضر معـه ملابـس ثقيلـة تقيـه هـذه الرعشـة التـي تملكتـه. قـرر أن يقوم بعمليـة تسـوق مباغتـة في قلـب لنـدن، وكان عليـه الذهـاب إلى شـارع اكسـفورد لـشراء معطـف واقٍ مـن المطـر وبعـض الأغـراض الأخـرى. عنـد محطـة أربـل أرش، دخـل إلى أحـد المحـلات التـي قـد توصـل إليهـا مـن خـلال بحـث سريـع عـلى الإنترنـت، والتـي تعـرض ملابـس جيـدة بأسـعار مخفضـة. كان المحـل يدعـى بريـمارك. لفـت نظـره أن المحـل يبعـد أمتـارًا قليلـة عـن محـل العربيـة للعـود، بلافتتـه المميـزة باللغـة العربيـة ونفـس الديكـور الـذي يتميـز بـه المحـل في كل مـكان، ويبيـع نفـس المنتجـات العربيـة مـن بخـور وعطـور شرقيـة وعـود. رؤيـة محـل العربيـة للعـود بـث في روحـه حـرارة افتقدهـا منـذ غـادر عالمـه قادمًـا إلى هنـا.

اقـترب مـن البوابـة الرئيسـية لمحل بريـمارك محـاذرًا.. يبـدو أثر الدرسـين السـابقين صـار كالمـرض أو الهاجـس. وعندمـا دخل، اتجـه إلى شـمال البوابة، فوجـد نفسـه فجـأة في قلـب منطقـة الملابـس النسـائية، ولحظـه العاثـر كانت غـرف القيـاس مزدحمـة، ووجـد الفتيـات تقمـن بقيـاس الملابـس الداخليـة في الممـرات.. كانـت هنـاك فتـاة - يعتقـد أنهـا بالتأكيـد مجنونـة- خلعـت ملابسـها في هـذا الـبرد الرهيـب لقيـاس حمالـة صـدر!.. بالرغـم وجـود لوحـة تحظـر ذلـك، إلا أن السـيدات كعادتهـن، لا تلقـين بـالًا للتعليـمات.

أضاءت أجهزة الإنذار على الفور في عقله، فخرج مسرعًا من بوابة المحل، دون أن يشترى المعطف الذي جاء يبتغيه من بريمارك.

خرج من المحل مسرعًا ناحية المترو. لفت نظره أن الشارع يزدحم بعدد كبير من السيدات والفتيات المحجبات، لدرجة أنه تخيل نفسه للحظة قد خرج إلى مدينة أخرى غير لندن. أثار ذلك فضوله، لكنه كان قد قرر العودة إلى الفندق. اتجه إلى المترو، ثم نزل إلى خط السنترال، وفي أثناء وقوفه على السلم الكهربائي النازل، كانت أمامه مباشرة فتاة محجبة وشاب، وهما منهمكان في وصلة من القبلات والأحضان الساخنة، لدرجة جعلته يشعر بالخجل من وقوفه خلفهما!

وأخيرًا، عاد من مغامرته إلى محطة توتنهام كورت، والتي كانت تبعد مسافة محطتين فقط.

قرر أن يبحث عن مطعم عربي. طالما كان هنا هذا العدد من المحجبات، فمن المؤكد وجود مطاعم عربية. بحث لبعض الوقت، حتى توصل لمطعم كتب عليه بالإنجليزية «فلافل وكباب»؛ لقد صدق حدسه. توقف عند هذا المطعم، وكان الشاب الذي يعمل به واقفًا أمام الباب، وعندما رأى أنه عربي، قابله كما هي عادة العاملين في مطاعمنا قائلا...

«أهلا يا باشا»

ذكره ذلك، ومنظر المطعم من الداخل بمطعم «هَوُّهَوُّ» في الساحل، ونفذت إلى أنفه رائحة طاجن اللحم في الفرن، والذي

أحرقت أنفه رائحته التي استدعاها من ذاكرته لتوه. قام الشاب بمصافحته، وتوجه به إلى داخل المطعم. لم يكن لدى أحمد أدنى مقاومة، وهو قد حضر لتناول طعام عربي.

دخل إلى المطعم، وشاهد أصناف الطعام الفقيرة، وتعرف على الشاب العامل هناك. كان الشاب مغربيًا، لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، تبادل معه أطراف الحديث، ثم طلب منه فراخ بانيه مع البطاطس والشاي، ودفع في مقابل ذلك ثمانية جنيهات إسترليني، وترك له بقية العشرة جنيهات كبقشيش. بدأ تناول طعامه، وبعد قليل دخل إلى المطعم شاب انجليزي، يبدو من هيئته أنه غير سوي. كان نحيفا جدًا، ويرتدي الجينز، وعيناه زائغتان، وتشعر عندما تراه أنه في عالم آخر، أو أنه مغيب. لم يكن الفتى يعرف انواع الطعام المعروضة، وبعد قليل طلب من الشاب المغربي السجق مع البطاطس والبيبسي.

ثم دخلت فتاة إلى المطعم بعد الشاب بقليل، وراحت تسأل العامل عن كل أنواع الطعام، وآخيرًا أخبرته أنها لا تريد الطعام، فقط تريد استخدام حمام المطعم. اصطحبها الشاب إلى الداخل، واختفى لدقائق، بعدها خرجت الفتاة منتعشة، وأشارت له بإصبعيها بعلامة النصر.

«أكيد ارتاحت.. مسكينة» هذا ما ردده أحمد في نفسه.

بعد فترة، دخل الشاب الإنجليزي إلى الحمام، واختفى الشاب المغربي مرة ثانية لمدة دقيقتين، بعدها عاد الفتى الإنجليزي بوجهٍ مُنتشٍ، وجلس ليأكل بشهية.

تكـرر هـذا الأمـر مـع العديـد مـن الفتيـات والشـباب، فتسـاءل أحمـد في نفسـه.. غريـب أمـر هـذا الحـمام الـذي يشـبه مطـار هيثـرو!.. وبـدأ القلـق يبـدو عليـه، وبـدأت أعـراض صالـة الديسـكو تظهـر عـلى ملامحـه، وبـدأ يلتفـت حولـه ينتظـر الحضـن الدافـئ في أيـة لحظـة. زاد قلقـه، حـد أنـه لم يسـتطع قطـع الدجـاج بالسـكين.

بعـد قليـل، دخـل رجـل ضخـم إلى المطعـم، وتوجـه بسرعـة خلـف مـكان إعـداد الطعـام. وفجـأة، قـام الشـاب المغـربي بقـذف لفافـة عـلى أحمـد، وهـو يخبرالراجـل الضخـم قائـلًا...

– الماريجونا تخص هذا الزبون.

وأشار إلى أحمد!

اتضحـت الآن الحقيقـة.. فالشـاب لم يكـن يبيـع الطعـام فقـط، بـل كان أيضًـا يبيـع المـزاج للشـباب والفتيـات، لذلـك كان مـن يدخـل الحمام يخـرج وهـو سـعيد ويـكاد يطـير منتشـيًا مـن عـلى الأرض. أسـقط في يـد أحمـد عـلى أثـر المفاجـأة، وقـام عـلى الفـور بالإمسـاك باللفافـة، وألقاهـا إلى حيـث أتـت، ناحيـة الشـاب المغـربي، الـذي رماهـا عـلى الرجـل، الـذي اتضـح أنـه شرطـي، وفي لمحـة الـبرق كان أحمـد قـد تـرك الطعـام وهـو يـصرخ:

«الله يخرب بيتك أنت حتودينى في داهيه»

وبسرعـة صـاروخ أرض جـو، قفـز مـن فـوق الكـراسي قفـزة كانـت لتؤهلـه للفـوز بالأوليمبيـاد، اصطـدم عـلى إثرهـا برجـل وفتـاة يحضنـان بعضهـما أمـام مدخـل المطعـم، فأسـقطهما أرضًـا وسـقط فوقهـما مـن

قـوة الارتطـام، لكنـه نهـض مسرعًـا، يهـرب ناحيـة الممـرات المواجهـة للمطعـم عـلى الرصيـف الآخـر، واختفـى في زحـام منطقـة سـوهو سـيئة السـمعة، والتـي كان قـد أقسـم ألا يعـود إليهـا، فـإذا بـه يدخلهـا مجـبرًا فـارًا مـن قـدر لم يخلـق لـه، إن أمسـك بـه الشرطـي.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
حتى أنتِ يا لندن

الفتاة التي تعزف على الجيتار الكهربائي في محطة ويست منستر - حيث قرر أحمد زيارة مبنى البرلمان البريطاني، وبرج ساعة بيج بن الشهيرة، على شاطئ نهر التايمز الملوث- كانت حقًا جميلة، وكانت تقف منتصبة القامة كغصن بان ما زال مبتلًا من قبلة أمطار أواخر الشتاء. كانت العازفة تجبر كل الركاب على تحيتها، لعبقرية العزف، وجمال صوتها وهي تغني أغنية قوة الحب لسيلين ديون.

ما زال مظهرها الجذاب وعزفها المتفرد يجوب طرقات خيال أحمد، وهو منهمك في مشاهداته للنهر ورواده، والبواخر الصغيرة التي تقوم بين وقت وآخر برحلات نهرية بين ضفتي النهر، تلك التي ذكرته بالأتوبيس النهري ورحلات القناطر الخيرية، ورقص الثلاث فتيات يوم العيد في طريق عودته مع مجدي من زيارة خالته، وهو يجلس منزويًا خجلًا في ركن ليس ببعيد في المركب الشراعي.

مجـدي هـو صديـق المراهقـة الأول، وصاحـب المغامـرات الأليمـة معـه وهومـا زال غـض العـود لم تتفتـح أزهـاره. تلـك الذكـرى البعيـدة، التـي تـرك مرورهـا بمخيلتـه ابتسـامة وخجـل، وهـو يتذكـر ذلـك الفتـى ذا السـبعة عـشر ربيعًـا الـذي كانـه، والتـي تحولـت لحسرة عندمـا غادرته الذكـرى وحـل موضعهـا واقعـه أمـام عينيـه.

في طريـق عودتـه مـن ذات المحطـة، قـرر أن يقـف للاسـتمتاع بعـزف تلـك الفتـاة. مـا زالـت تعـزف حتـى وقـت ظهـوره، ولسـوء حظهـا لم يمنحهـا العابـرون سـوى القليـل مـن العمـلات المعدنيـة، التـي تناثـرت في قـاع حقيبـة الجيتـار السـوداء التـي قـد وضعتهـا أمامهـا، عـلى أمـل أن يتكـرم المـارة عليهـا ببعـض مـال.

ولا تتعجـب عزيـزي القـارئ، فهـذا الأمـر مألـوف في لنـدن، في كل محطـات المـترو، وكذلـك عـلى شـاطئ النهـر. تجـد مـن يتسـول بعـدة طـرق مختلفـة، منهـا الطريـف، ومنهـا الممتـع، ومنهـا المؤلم. حتـى لنـدن لم تعـدم المتسـولين، ولا الباحثـين عـن الطعـام في مخلفـات الأكثـر دخـلًا.

«حتى أنت يا لندن!»

هكذا رددها أحمد بينه وبين نفسه، حين فاجأته الحقائق.

قـرر أحمـد أن يتوقـف للاسـتماع للعـزف، وأن يسـاعد هـذا الفتـاة ببعـض العمـلات الزائـدة عـن حاجتـه، والتـي تشـكل آلـة عـزف رديئـة في جيبـه، تصـدر أصواتًـا متقطعـة أثنـاء حركتـه. هكـذا وجدهـا فرصـة للتخلـص مـن تلـك العمـلات، التـي أعطتـه إياهـا الفتـاة في المقهـى عنـد عـين لنـدن، بعـد أن طلـب قهوتـه. بعـد انتهـاء العـزف، تقـدم مـن الفتـاة،

وأخـرج كل مـا كان في جيبـه مـن عمـلات مـلأت قبضـة يـده. رفعـت الفتـاة عينيهـا إليـه وعـبَّرت عـن امتنانهـا بابتسـامة رقيقـة، لا تقـل جمـالا عــن عزفهــا، ولا روعــة عــن أناقتهــا، ثــم بــدأت في جمــع أغراضهــا للذهــاب. تــردد أحمــد للحظــة، ثــم عــرض عليهــا المســاعدة في جمــع الأسـلاك، ففوجـئ بـرد فعلهـا.. ذعـرت الفتـاة للحظـات وتمسـكت بالحقيبـة، فهـز رأسـه مسـتفهما، لكنهـا مـا لبثـت أن هـدأت، وقبلـت العـرض عـلى وجـلٍ، وهـي ممتنـة لجميـل صنعـه.

حمـل عنهـا الحقيبـة، وسـارا معًـا إلى خـارج المحطـة، في اتجـاه لمبـس نـورث. عـبرا معًـا الكوبـري للجهـة الأخـرى، حيـث عـين لنـدن الشـهيرة. كانـا يسـيران تحـت قطـرات مطـر خفيـف، ونسـيم بـارد يعـبر بهـما. لاحظـت الفتـاة صمتـه، فبدأتـه بالحديـث، وسـألته عـمّا يفعـل في لنـدن، وكـم مـن الوقـت سـيقضي بها، ومـا هـي الأماكـن التي شـاهدها.. وهكـذا، سـارت الأمـور.. وبـدأ التواصـل يصبـح دافئًـا بعـض الـشيء، في هـذا الطقـس البـارد المبلـل بالأمطـار.

بعد بعض الوقت، سألها إلى أين تريد الذهاب، فأجابته:

- سـوف أعـود للبيـت لأرتـاح قليـلًا، قبـل أن أعـود مـرة أخـرى للعـزف في نفـس الموضـع

كانـت قـد قـررت أن تغـيِّر الأغنيـة لأخـرى، لأن مـا جنتـه في الصباح لم يشـجعها عـلى غنـاء ذات الأغنيـة مـرة ثانيـة. قـررت عـزف أغنيـة ذات إيقـاع سريـع، لجـذب جمهـور مـن الشـباب والفتيـات، فلعـل ذلـك يزيـد مـا تجنيـه مـن المـال. وجدهـا أحمـد فرصـة أن يقـدم لهـا شـيئا قـد

يسعدها، فدعاها لتناول الطعام. قبلت الفتاه الدعوة، وهي سعيدة لدرجة أوحت إليه أن يقوم بدعوتها كل يوم، ليشاهد ذات الفرح على ملامح وجهها. دخلًا إلى مطعم ماكدونالدز، بالقرب من محطة مترو واترلو، وطلبت الفتاة أجنحة دجاج وكولا وبطاطس، وتناول هو برجر مزدوج بالجبن وعصير تفاح وبطاطس.

يالـه من إرث يجعل الكلمات ثقيلة على لسانه.. لمدة أكثر من ساعة، وهو ينتظر اللحظة المناسبة حتى يسألها عن اسمها، وكلما وضع الكلمات على لسانه غلبه الصمت. لكنه أخيرًا، استجمع شجاعته، وهو يقطِّع البرجر بالسكين، وينظر في طبقه بتركيز، امتلك من الجرأة ما مكنه من سؤالها عن اسمها. وبقدر صعوبة السؤال عليه، كان قدر سهولة إجابتها وهي تضع قطعة بطاطس بين شفتيها الصغيرتين:

- اسمي جيني

سألها مستغربًا أنها على هذه الدرجة من الاحترافية في العزف، وكيف لا تعمل بالعزف أو الغناء في مسرح متخصص، أو على الأقل في ملهى من تلك الملاهي الكثيرة في المدينة، فتحصِّل دخلًا يغنيها عن استجداء الناس في محطات المترو. رجعت جيني بظهرها في المقعد، وكفّت عن الأكل، وتنهدت وهي تحاول استرجاع ما مرت به خلال الأعوام الماضية. أغمضت عينيها للحظات، وعندما فتحتهما ثانية، كان على وجهها آلام سنوات قد احتلت فجأة ملامحها، بديلة عن البهجة المصطنعة التي كانت مرسومة عليه منذ قليل. وكأنها تبدلت لغير الشخص الذي عزف منذ ساعة، فحلت روح اليأس محل المرح، وحل الألم موضع السعادة! قالت بمرارة:

– أنا خريجة جامعة الملكة ماري في ميل اند. لكن الأيام تعيد تشكيلنا، وقد تضيعنا للأبد.

ثم إنها أخرجت صورة صغيرة تحتفظ بها، لشاب أبيض البشرة ذي شعر أشقر، يبدو من عضلاته أنه رياضي. قالت:

– هذه صورة هاري، الذي تركني وحيدة تائهة، لا أعلم لي في الدنيا ملجأ، ولا أجد لي موضعًا داخل قلب يحتويني. لقد رحل القلب، ورحل العمر، وضاع الحلم، ومات المستقبل حين ذهب هاري صديقي وحبيبي ورفيق أيامي.

أغمضت عينيها، ورسمت دموعها خطا رقيقًا على وجهها، قبل أن تتماسك مكملة:

كنت وهاري نخطط لمستقبل جميل، وتكوين أسرة صغيرة. كنا نعيد بناء الحلم كل يوم، حتى نصنع أيقونة للمستقبل، تشرق لها أيامنا، ويعزف جيتاري أغنية حياتي، فتبتهج الدنيا كراقصة بعثرتها الأوتار في ليلة مقمرة، فنثرت البهجة، واستدعت فراشات الجمال فهِمن حولها. كنا في ذلك الوقت نسكن شقة صغيرة، تطل على حديقة كنجستون الجميلة، وكم تابعنا مباريات التنس هناك. لكن الأقدار كان لها خيار آخر، فقد رحل هاري إلى عالمه السماوي ذات يوم، إثر اصطدام دراجته النارية بسبب الأمطار، فانهارت أحلامي، وأصبحت الوحدة هي ملاذي، والألم رفيقي.

أشارت بيد مقبوضة إلى موضع قلبها وهي تقول:

- ذلك الشيء النابض هنا أصبح هامدًا، وحل فيه الليل، وغابت شموسي وبردت أطراف أحلامي، ثم تجمدت.. تناثرت في كل مكان تمامًا مثل أشلاء هاري، وظلت تدمي روحي في كل يوم مرات ومرات.

تركت بيتي، وصرت أقضي يومي مخمورة في طرقات سوهو. بعد عدة شهور، استعاد صاحب المنزل الشقة، لعدم قدرتي على دفع الإيجار. لم أتمسك بها؛ فلتذهب الشقة للجحيم، ولو كان حظي جيدًا لرافقتها إلى عالم الموتى. لكني مازلت هنا، أتجرع مرارتي وحدي، ولم يعد لي ملجأ إلا الشارع.

قاطعها أحمد:

- ولكنك أخبرتني منذ قليل أنك ذاهبة إلى المنزل!

كافحت ابتسامة هزيلة كي تخرج للنور على شفتيها وهي تتابع..

- نعم، فأنا أسكن الآن حديقة بارني سباين، على شاطئ النهر بعد المتحف القومي، ونحن الآن متجهان إلى هناك.

كان الجمود المرتسم على وجه أحمد لا يخفى عليها سببه. صمتت، فقال هو:

- ولكن كيف تبقين على قيد الحياة في الشتاء؟.. حين تنخفض درجة الحرارة لأقل من الصفر!

أجابته جيني وهي تهز كتفيها لا مبالية:

في بعض الأيام أرتاد أحد ملاجئ المشردين، لأحصل على وجبه دافئة. وقد سكنت مطار هيثرو لبعض الوقت، فمظهري لا

يبدو كالمشردين، وقد أضبط هيئتي فأبدو كإحدى الركاب الذين ينتظرون رحلاتهم. إنني محترفة لِحِيَل التسكع.

أوصلها أحمد حيث منزلها المتواضع، ولم ينس أمام مدخل الحديقة أن يضع في يدها بعض المال، مساعدة منه لفقراء لندن. قفل عائدًا وهو يتمتم:

«حتى أنتِ يا لندن!»

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

الغريب

قد نبصر بعض الأمور حولنا بعين حانية، ولكن الدنيا ترقبنا بأعين قميئة بغيضة، وترى فينا فريسة محتملة، فما تلبث أن تغرقنا في دوامات الإغواءات، وتترك طرقنا لزجة، حتى إذا ما انزلق أحدنا، هوى في حفرة سحيقة، لا خروج منها أبدًا.

وقد نرتحل، لنسكن أماكن جديدة، وطرقات عذراء.. ولكنا حقًا نُسكن بأماكن وشخوص جدد، يستبيحون عذرية أنفسنا وطهرها، وقد يعبرون داخلنا فيتركون آثارًا قد يمكننا الصبر وإبقاءها هادئة، ولكن تأتي بعضها كالأعاصير فتعصف بداخلنا، لتقذفنا مرة أخرى إلى ممرات وطرق سحيقة، محطمة كل جُدر اللامعقول.

أرجوك عزيزي القارئ أن تحافظ على رباط جأشك وهدوئك، ونحن نعبر هذا المنحنى من منحنيات الحياة في السطور التالية..

قضى أحمد جل وقته في التنقل بين الطرقات والمطاعم، متنقلًا من موقف طريف إلى آخر سخيف، وبدا أنه قد عزمت نفسه على التوائم مع المجتمع الذي وُضع فيه، فلم تعد تصرعه المفاجآت، ولا يُخيفه اتساع الفجوة السحيقة بين عالمه المتواري هناك خلف المسافات البعيدة، وما قابله في عالم وجد نفسه داخله في غفلة من الزمن. لما وصلت قناعته لتلك المحطة، انطلق في عالمه الجديد، يجوبه طولًا وعرضًا، ليختبر معالمه وينسج أساطيره الخاصة به، ويترك آثاره هنا وهناك.

حتى جاء يوم من أيام تلك الملهاة التي نحياها وتسكننا، يوم أن ذهب إلى شارع إدجوير وهو يُعرف في لندن بشارع العرب. كان حنينه لماضيه قد غلب شغفه بالعالم الجديد، فقرر التزود بجرعة من ثقافته، من خلال قضاء ليلة بشارع العرب في قلب لندن. توجه لمحطة مترو توتنهام كورت، وبينما ينزل درجات السلم، كاد أن يدوس بقدمه أحد المشردين، الذي لف نفسه بغطاء ثقيل، وراح في نوم في مدخل محطة المترو. وكان قد اعتاد ذلك، فلم يشغل باله، بل مضى في طريقه. بعد لحظات، كان قد استقل المترو المتجه ناحية محطة اكسفورد سيركس، في إيقاع رتيب وبرودة لفت المكان. كان يتابع صوت المذياع الداخلي وهو يعلن أسماء المحطات في هدوء ورتابة اعتادتها الأيام هناك. قام بتغيير الخط إلى باكرلوو متوجهًا إلى محطة إيدجوير. ما إن خرج من الباب الخارجي لمحطة المترو، حتى داعبت أنفه رائحة لم تغب كثيرًا عن ذاكرته، رائحة استدعت على الفور ذكريات أفراح الشارع ودخان المعسل والحشيش الذي يعبث

بهؤلاء اللاهثين خلف بعض غيبوبة، أو بعض هروب من عالم أثقلهم وليس لهم منه مفر أو ملجأ، هناك خلف المسافات، حيث نصب الجهل والفقر والجوع مسرحًا أضحى الناس فيه لاعبين، تحركهم خيوط ذلك الثالوث المرعب. كان الشارع ممتلئا بالمحلات والمقاهي العربية، ورائحة دخان الشيشة هي سمة مألوفة، واللغة العربية تعانق أذنه هنا وهناك. توجه لمطعم عربي يدعى السليماني، توصل إليه بعد بحث على الإنترنت، وأوصى به الكثيرون. لما وصل هناك، وجد المطعم على درجة عالية من النظافة، ومعظم رواده من الطلاب المغتربين والسائحين العرب، تناول غداءه: طبق من المشاوي التي افتقد طعمها منذ أن وطأت قدمره أرض لندن. وأزعم أن المعدة لها ذاكرة، حيث شعر بأن معدته ترقص فرحا عندما تناول أول قضمة من الطبق الموضوع أمامه. تناول طعامه ببطء وتلذذ، وهو يراقب الناس هناك، وكأنه قد عاد إلى محيطه، الذي انتزع منه طوعًا.

راح يتجول في الشارع على غير هدى، بل لعله أراد أن ترتاح روحه لبعض وقت في عالمه الأثير المفتقد، دون تفكير في الخريطة. عرج على بقالة المصطفى، وهو يبتسم لاسمها، واشترى بعض الأغراض التي لم يكن في حاجة حقيقية لها، ولكن كانت حاجته إلى روح المكان التي أحب أن يطيل بقاءه فيه، مكتشفا حقيقة أن بعض الأماكن تسكننا رغمًا عنا. اقتحمت ذاته رائحة الأعشاب والبقوليات التي تعود شيوعها في بلاده، فقرر شراء بعضها. لما دخل للعلاف، وقف أمام رف الأعشاب المرصوصة في عناية، وتوقف

عند أحدها وقد كتب عليه «بردقوش». كانت أول مرة يقرأ هذا الاسم.. أخذ علبة يقلّبها في يده، ليقرأ ما دوِّن عليها، عندما جاءه صوت من خلفه:

- هذه عشبة مفيدة جدًا.. بل هي سيدة الأعشاب جميعًا. خذها ولن تندم

قالها بعربية سليمة تمامًا، تظهر معها في نبرته لهجة أهل الخليج. تلفت أحمد ناحية مصدر الصوت، فوجد شابًا يقترب من الأربعين أو يكاد، لكن ملابسه كانت رثة تمامًا، وكأنه قد خرج من مستودع النفايات لتوه! كان الشاب يحمل عبوة عسل جبلي في يده اليمنى. كان الأمر غريبًا، فكيف لهذا المشرد - كما يبدو من ملابسه- بثمن مثل تلك السلعة، التي قد لا يستطيع الميسورون شراءها لارتفاع ثمنها؟ عسل جبلي؟! ما هذا؟! هكذا تمتم أحمد. ولغرابة الأمر، فقد تلكأ في دفع الحساب، حتى انتهى هذا الغريب من شراء ما جاء من أجله، وذهب لدفع حسابه، فذهب أحمد في أثره، وقد ارتفع سقف فضوله وانتبهت كل حواسه للأمر.

أخرج المشرد حافظته، وكان بالحافظة عدة بطاقات ائتمان. همس أحمد لنفسه:

- من أين لمن هو على هذه الشاكلة بكل هذه البطاقات؟!

دفع الغريب حساب أغراضه، ودفع أحمد بسرعة حسابه وخرج في إثر هذا الرجل، وقد نبأه حدسه أن هذا الغريب يحمل سرًا. وما إن جذب الباب في عجلة، حتى حدث ما لم يكن يتوقعه.. فالرجل

لم يبتعد عن الباب بعد، وكان يقف ليراجع تاريخ الصلاحية المدوَّن على علبة العسل الجبلي، على بعد خطوة واحدة من الباب، فاصطدم به أحمد، بقوة كانت كفيلة بفقده لتوازنه وسقوطه أرضا.. وسقوط علبة العسل الجبلي من يده، ليتحطم الإناء الزجاجي، ويسيل العسل على أرضية الشارع في ايدجوير!

تسمر أحمد في مكانه، حتى إنه لم يمد يد المساعدة للرجل الملقى على الأرض، أو يحاول رفع العسل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. لكنه استفاق من ذهوله على قهقهة مرتفعة من الرجل الملقى على الأرض، والذي نهض بهدوء، وربت على كتفه قائلا له:

- هييه أخينا.. فووووق.. أنت رحت فين؟

قالها بلهجة مصرية خالصة، كانت كفيلة بإعادة الوعي إلى عقله، وقد احمر وجهه، وهو لا يعرف كيف سيعوِّض هذا الرجل عما أصابه من خسارة، فستختل ميزانيته تماما لو دفع ثمن هذا العسل. ظل ينظر في عيني الرجل، وقفز إلى عقله تساؤل: ماذا إن كان هذا الرجل قد اشترى العسل لمديره أو لرجل غني أو شخص ما، وها هو سيسبب له المشاكل، التي لا تحتملها الغربة؟!

وصدقًا أخبركم، أن هذا الرجل المتسخ الثياب قد قرأ ما يدور بعقل أحمد، فبادره بابتسامة قائلًا:

- أعتذر لك، فأنا دائما ما ارتطم بالمتسوقين هنا، بسبب وقوفي في نفس الموضع كل مرة، ولا أتوقف عن هذا، برغم طرافة الحوادث التي أقع فيها دائمًا وغرابتها. يبدو أنه إدمان الوقوع في نفس الخطأ.

ضحك وأكمل:

- في المرة الماضية، عندما ارتطمت بي تلك السيدة، وقعت وأسقطت زجاجة زيت الزيتون على ملابسي. لقد أمضيت طوال اليوم غارقًا في الزيت، فالحمد لله هذه المرة عسل فقط، وببعض الماء يزول. أعتذر لك مرة أخرى إن كنت قد فزعتك أو أصبتك بسوء. هل تسمح لي أن أدعوك إلى كوب من الشاي في هذا المقهى القريب؟

أشار بيده ناحية أحد المقاهي، فتابعه أحمد صامتًا.. لو أراد أحمد نسج خطة ماكرة للتعرف على الرجل ومعرفة حكايته، لما استطاع أن يتفنن في رسم خطة كهذي التي كان القدر كفيلًا برسمها بعبقرية، وتنفيذها بحرفية وتلقائية عجيبة، وباستخدام ذات الأدوات المتوفرة في مسرح الأحداث!.. هز أحمد رأسه بالرفض، وقال:

- لا.. بل أنا من يستضيفك، فأنت سبقت باستضافة كريمة جدا، وتحملت خسارتك لسلعتك الغالية، فاسمح لي بدعوتك أنا إلى الشاي.

أومأ الرجل برأسه موافقا، وسارًا معا ناحية ذلك المقهي العربي. وعندما جلسا على هنا، ولأول مرة منذ هبط بمطار هيثرو، وجد نفسه يجلس بين من يزفرون دخان الشيشة بهذه الألفة.

- إذن أنت معتاد على السقوط!

قالها أحمد لضيفه الغريب وهو يبتسم، فأجابه الرجل:

- دائما ما أسقط.. ولكنني في معظم الوقت أخسر السلعة وأكسب صديقًا. تلك السيدة ذات السبعين ربيعًا، اللندنية، عندما

صدمتني من الخلف - كالعادة- وقعت، ثم توطدت علاقتي بها، وأصبحت ازورها في بيتها وأقضي لها حوائجها.. بل أقول بثقة إنها أصبحت لي كأمي التي لم أرها لأكثر من ست سنوات.

ترقرقت دموعه عندما تذكر أمه، ووجم صامتًا.. لكن سرعان ما قطع تلك الحالة حضور النادل، ليسألهما عن طلباتهما، متقدمًا بقائمة طويلة من المشروبات العربية. طلب أحمد السحلب بالمكسرات، وطلب الرجل المتسخ الثياب شاي الأعشاب بنكهة البرتقال! وعندما هم النادل بالانصراف، قال له الغريب:

- لا تنس يا كريم أن تضع العسل

فغر أحمد فاه، فعاجله الرجل بقوله:

- ألم أقل لك إني معتاد للسقوط. هذا أقرب مقهى للباب، فأنا كل مرة أرتطم أمام هذا الباب أدعو من اصطدمت به لشراب هنا.

ابتسم أحمد وقال له:

- أنت خبير علاقات عامة إذن

فأجابه الرجل ضاحكا:

- نعم.. قسم اصطدام من الخلف.

كان أحمد يلاحظ أن الرجل يتكلم برقي يتنافى مع مظهره، ويلح عليه سؤاله عن ذلك، ولكنه يتراجع، مكتفيا بأسئلة بسيطة مناسبة لتعارف وليد الصدفة. سأل الرجل عن اسمه، فأجابه:

-.اسمي سليم

تذكر أحمد أنه لما وقف خلفه بمكان المحاسبة في البقالة، كانت بطاقته الائتمانية باسم «علي»، وليس سَليم. هو يذكر ذلك جيدًا، لأن المحاسب حدثه بذلك الاسم أيضًا. لكنه لم يكن بحاجة لتكذيب الرجل الآن، بل يحتاج لكسب مزيد من الوقت معه، لاستكشافه وإرواء فضوله:

– سليم.. اسم لم يعد منتشرًا في مصر.. أنت مصري، صح؟

– لقد زرت مصر عدة مرات، ولا أنسى أسماك دوران شبرا، ولا المنوفي للكباب والكفتة وسهرات الحسين والسيدة.. حفلات الأوبرا، الأيام التي قضيتها في خليج نعمة اتسكع على المقاهي هناك.

ضحك وأكمل:

– أتدري.. لقد هاجمني القرش وأنا اقوم بـ سنوكلينج قرب رأس محمد. أهلًا يا مصري... نورت لندن.

ارتسمت علامات التعجب على وجه أحمد.. سنوكلينج!.. وارتفعت وتيرة الفضول عنده للسماء.. هذه المرة لم يستطع أن يملك نفسه، فوشت ملامح وجهه بما يكنه صدره، فابتسم سليم ولمعت عيناه وهو يقول:

– طبعًا مظهري يتنافى مع ما أقصه عليك. يا صديقي، لا تدع القشور الخارجية تشغل تفكيرك كثيرًا، وانصحك أن تتحرك دائما نحو وسط الدائرة، فهناك يقبع السر دائمًا. هذه الحكمة تنطبق على كل شيء حولنا.

من أنت؟

قالها أحمد وهو ينظر لسليم بنظرة ملؤها الإعجاب والاستغراب. أجابه سليم:

- أنا!.. أنا فقط عابر سبيل، مررت من طريق فعلقت قدمي بأشواكه فأدمتها، فجلست لا أقدر على إكمال سيري. وأنت عبرت من نفس الطريق، فارتطمت بي، فجلسنا فتعارفنا، لبعض الوقت. قد يروي كل منا للآخر عما شاهده في رحلته؛ لكنَّا بعد قليل سيمضي كل منا كي يعبر طريقه بنفسه، ولا مفر أبدًا من ذلك، فقلل من سقف تعجبك، لأنك قد تقابل ما هو أعجب مني خلال ترحالك.

كان كلام سليم ينبئ أحمد بالكثير. كان كلامه يؤكد حدس أحمد أن هذا الرجل يحمل سرًّا كبيرًا.

- «سليم».. أنت تتعاطى الفلسفة.. وتظلل كلامك مسحة من ألم. هلا بسطت لي كف كرمك، وأزحت الستر عما وراء كلماتك؛ فأنا لن اتركك حتى تفسر لي ما تقول، وأفهم منك لماذا تبدو على هيئة المشردين، وأنت تتكلم بلسان رجل تلقى العلوم، وتروي الحكمة كخبير جاب الدنيا طولًا وعرضا.

التهم الصمت أطراف الحوار، لما أحضر النادل المشروبات قائلًا:

- ملعقة صغيرة من العسل لك، كما طلبت. إن أردت المزيد، فلتخبر ني .

شكره سليم في مودة، راسمًا ابتسامة خفيفة على وجهه، قائلًا:

- ما هي أخبار ابنك؛ هل مرت الجراحة على خير؟

أومأ كريم في رضا:

- الحمد لله، خرج من المستشفى بالأمس.

أكمل سليم..

- كما أخبرتك، لا تهمل العلاج الطبيعي.. ستة أشهر على الأقل.. وعليك أنت وأمه بالصبر، فعمليات العظام لا تكتمل نتيجتها إلا بالعلاج الطبيعي، وتحتاج لوقت وصبر. هل تحتاج أية مساعدة؟

شكره النادل...

- والله يا أستاذ سليم، لن أنسى وقوفك بجواري، ولا مساعداتك لنا، فجزاك الله عنا خيرًا.

هذه المرة لم يتعجب أحمد، ذلك أنه كان قد هيأ نفسه أنه يجلس إلى جوار رجل له قدره، بالرغم من مظهره الفقير، الذي يخدع من يمر به.

- هل ابنه مريض؟

أجابه سليم:

- مسكين كريم، يكاد لا يرتاح، كي يستطيع أن ينفق على أسرته هناك في دمشق، ولا يملك حظًا من قَدَر ليحضرهم هنا، فأمه العجوز مريضة، ترعاها زوجته هناك. والآن، قدره أن

ابنه الأكبر حسين قد صدمته سيارة مسرعة، وهو يعبر الطريق عائدًا من المدرسة في دمشق، واحتاج لعدة جراحات عظام حتى يستطيع أن يقف على قدميه مرة أخرى. كما ترى، كريم رجل فقير وحيد، ترك أولاده خلفه، ويخاف عليهم الضياع وهو في سعيه.. لا يملك شيئًا من مال يعينه على علاج ذلك الصغير، ولكنه محبوب هنا، ولذا فقد تكفل بعض العرب المغتربين هنا بنفقات علاج ابنه، جزاهم الله خيرًا. اشرب السحلب قبل أن يبرد، فهو سيحميك من برودة الطقس، وأنت كما يبدو لم تحضر معك معطفًا يقيك من البرد أو المطر.

تناول أحمد السحلب بالمكسرات، الذي لم يزل ساخنًا، وراح يقلبه بالملعقة في هدوء، وهو يتأمل هذا الرجل الجالس أمامه في إعجاب .

سأله سليم:

- هل أعجبتك لندن؟

بدت علامات الدهشة على وجه أحمد، وبدون تردد وضع كوب السحلب على الطاولة أمامه وهو مسمر العينين على سليم سائلًا:

- كيف عرفت أنني لست من أهل لندن؟

كان يسأله بدون اندهاش حقيقي هذه المرة، فقد خبر الرجل من قبل، وأيقن أن له نظر ثاقب،؛وإنما طرح سؤاله رغبة في أن يتعلم منه أكثر.

ابتسم سليم...

– يا صديقي، أهل لندن كلهم يحملون مظلاتهم في هذه الأيام، ويرتدون معاطف تقيهم من البرد. وحده الغريب على لندن لا يفعل، لعدم درايته بالطقس هنا، وكم هو متغير في هذه الأيام من شهر مايو كل عام.

– كم أنت سريع البديهة، دقيق الملاحظة يا سليم.

لم يبد على سليم أي أثر لكلمات الإطراء تلك، فأكمل أحمد قائلا:

– أنت محق. هذه أول زيارة لي هنا، ولكن يبدو أن المدينة العريقة لا ترحب بي، ولا أنا أرحب بها في قلبي. إنها مدينة هادرة ومزدحمة، ولم تبدُ لي كمدينة أوروبية، وخاصة حيث أقطن بالقرب من البيكاديلي، وكذلك فإن برودة الجو تبعث الكآبة في شوارعها وعلى وجوه الناس.

لما أتى أحمد على ذكر البيكاديللي، قهقه سليم:

– البيكاديلي مرة واحدة، وفي أول زيارة لك هنا! يا رجل أنت وضعت نفسك في وسط العواصف، بل في عين إعصار هادر. أما يكفيك أن سكنت عاصمة العالم، فتختار جيرة منطقة سوهو، حيث مركز كل الممنوع المباح؟! إنك يا صديقي تحوم حول الحمى، فإن لم تحذر، فأنت ساقط لا محالة.

لما توقف سليم عند ذكر البيكاديلي، ابتسم أحمد وقد احمر وجهه، وهو يتذكر اليوم الأول وصالة الديسكو، ولا إراديًا تحسس ظهره بيده.

– هـذه ابتسـامة أحـد أمريـن.. أمـر غريـب أو موقـف سـخيف.. وكلاهمـا يحـدث وسـيحدث لـكل عابـر سـبيل هنـا، فأيهـما مـر بخلـدك الآن؟!

نظر أحمد مباشرة في عين سليم متعجبًا..

– أنـت ماكـر يـا سـليم. أنـت تلقـي لي بالطعـم، وأنـا أبتلعـه كل مـرة منـذ التقينـا. بـل لعلـك وقفـت قصـدًا خلـف البـاب، ولعـل مـا أسـقطته عـلى الأرض ليـس العسـل الجبـلي الغـالي الثمـن الـذي اشـتريته، وإنـما قـد تكـون قـد اسـتبدلته بآخـر رخيـص الثمـن، لتسـقطه! مـا كان وقوفـك خلـف البـاب سـوى خدعـة احترفتهـا للإيقـاع بفرائـس جديـدة. ولكنـي عـلى كل حـال سـأخبرك عـما حـدث معـي، فقـد كنـت أيضـا أريـد التعـرف عليـك، ومعرفـة مـا يقـع في منتصـف دائرتـك.

بالرغـم مـن أن أحمـد توقـع أن تغضـب كلماتـه سـليم، إلا أن مـا حـدث كان جديـرًا بـأن يـدوَّن في كتـب الغرائـب. فـما إن انتهـى أحمـد مـن جملتـه، حتـى انتصـب سـليم واقفًـا، وعـلى وجهـه ارتسـمت علامـات الإعجـاب، وانحنـى في حركـة مسرحيـة أمـام أحمـد قائـلًا:

– أنا أنحني احترامًا لقدرتك التحليلية وذكائك.

وبسرعـة، أخـرج مـن بـين طيـات ملابسـه علبـة العسـل الجبـلي، ومـده يـده بهـا قائـلا:

– هـذا بالفعـل مـا حـدث، ولكـن – كـي لا تـسيء الظـن بي– سـأخبرك أمـرًا.. أنـا أقـضي معظـم وقتـي وحيـدًا هنـا في هـذه المدينـة،

ومـا ألبـث أن أرى أي عـربي، حتـى أتحـين الفرصـة للتعـرف إليـه، حتـى أجـد مـن أبادلـه الحديـث. قـد يبـدو ذلـك غـير منطقـي، ولكنهـا الحقيقـة، وأقسـم لـك أن هـذا مـا أردتـه.

أشار أحمد بيده إلى سليم قائلًا:

- لا عليك يا سليم، أم أقول يا علي؟

هنا انتفض سليم يسأله:

- كيف توصلت لهذا الاسم؟ لا أحد يعرفه هنا بتاتًا!

أشار أحمد لحافظة سليم قائلًا:

- بطاقة الائتمان الخاصة بك أفشت سرك يا صاحب السر.

تبدلت ملامح سليم، وتحولت نبرة صوته إلى الرجاء:

- أسـتحلفك بـالله ألَّا تخـبر أحـدًا، فأنـا في غنـى عـن أن أسرد حكايتـي عـلى مسـامع النـاس، وخاصـة أن الجميـع هنـا يحملـون همومهـم الخاصـة، ولنـدن كفيلـة بـأن تجعـل الجميـع في سـباق للحفـاظ عـلى الوجـود.

مال أحمد عليه، وربت على كتفه قائلًا:

- خفـف عنـك يـا صديقـي، فلـن يعلـم أحـد بهـذا الأمـر. أعـدك بذلـك، ولكـن أن كنـت تـرى أن تشركنـي فيـه، إن كان بيـدي شيء أسـتطيع فعلـه مـن أجلـك، أرجـوك أن تخـبرني، ولـن أتوانـى عـن ذلـك.

اعتـدل سـليم بكرسـيه، ليصبـح في مواجهـة أحمـد. صمـت

لدقيقة، وأخذ يرتشف شاي الأعشاب، بعد أن اطمأن إلى صدق نوايا رفيقه. جال بنظره في شارع إيدجوير، كأنه يبحث عن شيء ما، ثم عاد بنظره إلى أحمد قائلًا:

– كيف سارت أيامك الأولى هنا؟

كانت تلك هي المرة الأولى منذ تقابلًا، تكون فيها التلقائية والصدق هي مظلة الحوار. وضع أحمد السحلب على الطاولة، وكان قد تناول منه ما يزيد عن منتصف الكوب الزجاجي المزخرف مجيبًا:

– لي في لندن أيامٌ قلائل، ولكن كأنها عمر. لقد وصلت يوم الأحد الماضي. إنها في الحقيقة رحلة عمل قصيرة، كل ما أتمناه بعد ما رأيت من هذه المدينة، أن تنتهي بسلام.

روى لسليم ما مر به من مغامرات، وسليم يضحك بين حين وآخر مستمتعًا بالرواية، حتى إن ضحكاته كانت تجذب انتباه رواد المقهى، ولكن من حسن الحظ أن العرب هنا، بعد معايشة طباع المدينة، يتطبعون بإحدى سماتها الطيبة، ألا وهي احترام خصوصية الآخرين، التي يقدسها أهل لندن لأقصى درجة.

وجد أحمد نفسه قد بدأ يستمتع بالسرد، وهو يصف لسليم كيف قفز من فوق الطاولات في المطعم المغربي، تلك القفزة التي قد تؤهله لأوليمبياد لندن القادمة في شهر يوليو؛ وسليم لا يتمالك نفسه من الضحك، وهو يجاوبه:

– شريطة أن يقف أمامك عاشقان يتبادلان القبلات، حتى تصطدم بهما أيها الثعلب، ولعلك أسقطتهما عمدًا

فيبادله أحمد الضحكات مضيفًا:

– يبدو ذلك منطقيًا

ويزيد قائلًا:

– هل ترى هذا الساذج الذي أمامك؟ (ويشير لنفسه ضاحكًا) كانت لفافة البانجو بين يدي، وقذفتها عائدة من حيث أتت، وانطلقت أعدو خارجًا، بدلًا من أن أقضي بهذه اللفافة باقي الأيام في سوهو بصحبة الكثير من الجميلات هناك.

هنا ارتفعت قهقهة سليم، ولم يتمالك نفسه، ورجع بالكرسي للخلف، حتى كاد أن يسقط أرضا وهو يقول له:

– بل لعلك قد تقع في يد من منحك الحضن الدافئ وأصدقائه، فتكون نهايتك أيها الساذج، وخاصة مع عطلة نهاية الأسبوع. إن نهاية الأسبوع هنا تمثِّل تحولًا في شوارع لندن، ليحل سلوك الحيوان محل التحضر، وتمتلئ الشوارع بالمترنحين، وترتفع أكوام النفايات وزجاجات البيرة والخمور في كل مكان، وينام الناس في الشوارع سكارى. يا لك من مسكين، لو شاهدك هؤلاء وفي يدك تلك اللفافة

وعادت قهقهته لترتفع عاليًا قائلًا:

– وقتها كنت لتتمنى لو أنك بالفعل قضيت تلك الليلة بصحبة النادلة الكورية في شقتها، لأن ما سيتبقى منك بسبب هذه اللفافة لن يقدر على شيء بعد عطلة نهاية هذا الأسبوع.

عندما وصل لنهاية جملته، جاء دور أحمد لينهار من الضحك صائحًا :

- صيد ولا أحلى من ذلك.. أصلع وسمين ومعه بانجو للجميع مجانًا.

والغريب، أن رواد المقهى أيضا بدأت تنتشر بينهم نوبة من الضحك الهيستري، الذي بدا لأحمد كأنه بدون سبب، وكأن المكان بأكمله قد ابتلعته لحظات من جنون. لما وصل الأمر لهذه الدرجة، جاء كريم مسرعًا قائلا:

- أستاذ سليم، من فضلك أخفض الصوت، فأنت تعرف انه ممنوع إزعاج السكان في الجوار لأن ذلك مخالف للقانون

نظر له سليم، ولم يتمالك نفسه من الضحك وهو يتخيل منظر أحمد في شوارع سوهو، ورواده متجمعون عليه تجمع الذئاب حول الفريسة، فنظر إلى كريم وقال:

- يا كريم، أحمد، سوهو، ....

وانهار في نوبة جديدة من الضحك المتواصل، وانتقلت العدوى لكريم نفسه، حتى إنه لم يجد ما يفعله حيال ذلك إلا أن ينصرف عائدًا إلى داخل المقهى.

بعد أن هدأت الضحكات، نظر سليم لأحمد سائلًا:

- يا صديقي، ما اسمك؟ أنت لم تخبرني عن اسمك حتى الآن

أجابه:

– اسمي أحمد

أشار سليم بيده إليه قائلًا:

– أحمد.. أنت ضيفي الليلة، فأنا لم أستمتع بالحديث مع أحد منذ زمن، فلا تحرمني من تجاذب الحديث معك مرة أخرى.

افترقا، على موعد ليلًا لتناول العشاء. انطلق أحمد إلى محطة المترو عائدًا للفندق، بعد أن بعث فيه لقاؤه بسليم حرارة كان يفتقدها، في جو لندن البارد في هذا الوقت من السنة.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس

حفلة بيجاما

في تمام الثامنة مساءً، وكانت السماء لم تدخل بعد إلى كهف الليل، استيقظ أحمد على صوت رنين الهاتف المتواصل بلا انقطاع. في تكاسل، مد يده إلى الرف أعلى السرير، حيث وضع الهاتف قبل نومه، أو لنتحرى الدقة، قبل السقط في غيبوبة تشبه النوم، فلأول مرة منذ وصل إلى لندن يستغرق في نوم عميق. أمسك الهاتف وهو يتثاءب...

- نعم

- ألازلت نائما! استيقظ أيها المصري، فأمامنا الكثير لنقوم به.

اعتدل أحمد جالسًا، واستفاق فجأة من نومه قائلًا:

- سليم! كم الساعة الآن؟

أجابه سليم:

- إنها تمام الثامنة يا صديقي الكسول

لم تباغت كلمته أحمد، فقد خرج لتوه من بئر عميق، لذا سأله وهو يفرك عينيه.

- أين سنتقابل ومتى؟

- أنا أنتظرك في محطة توتنهام كورت الآن. أسرع، كي تلحق بقدرك يا مصري، قبل أن ينطلق نحو آفاق غير آفاقك.

لم يلتفت أحمد لكلمات سليم، التي تأنقت في ثوب ثقافي، كما أراد لها صاحبها. لكنه نفض الكسل عن عينيه، وهو يقفز من على السرير قائلًا:

- امنحني عشر دقائق لأكون أمامك

وبسرعةٍ كانت قد غادرت عالمه منذ أنهى فترة تجنيده كضابط في الجيش، ارتدى ملابس الخروج، وقبل أن تصل يده لمقبض باب الغرفة ليخرج، رن هاتفه، وكان المتحدث سليم مرة أخرى. عاجله أحمد قائلًا:

- مازالت هناك خمس دقائق متبقية

لكن سليم قال له: نسيت أن أخبرك أن ترتدي بيجاما أو ملابس رياضية مريحة

تعجب أحمد من الطلب، وسأل سليم: لماذا؟

كلمات سليم كانت قاطعة...

-لا تضع الوقت، فقط أفعل ما أخبرتك، وستعرف عندما تصل إلى هنا.

بالرغم من عدم رضاه، إلا أنه فعل ما طلبه سليم على مضض، وارتدى بدلة رياضية وحذاء رياضي، وتوجه بسرعة إلى محطة المترو. وفى أثناء نزوله، قابلته مديرة الفندق، سميرة، وبادلته التحية. وسميرة لها قصة، سنقصها لاحقًا، لكن دعونا نتابع الآن أحمد وهو يقطع شارع بلوومزبري بسرعة كبيرة، متجهًا إلى محطة المترو. كان الجو شديد البرودة، والأمطار ما زالت تتساقط وإن قلت شدتها. حاول أحمد رفع ياقة البدلة الرياضية لتغطي رقبته، علَّها تمنع بعض البرودة التي اخترقت عظامه. والغريب في تلك اللحظة، أن عبرت أمامه فتاة ترتدي ملابس السباحة، وتقود دراجتها بشكل جعله يخجل أن تؤثر فيه البرودة بهذا القدر. قطع إشارة المرور الحمراء إلى الناحية الأخرى من الشارع. لم يكن ليجروء على فعل ذلك حين وصل إلى لندن، لكنها العدوى، فقد شاهد الكثيرين من سكان وسط لندن يفعلونها، ويعبرون من أي مكان غير مكان عبور المشاة. كادت تصدمه دراجة، لعدم اعتياده على اتجاه المرور، وكذلك عدم انتظاره تحول الإشارة للون الأخضر. عندما وصل لتقاطع بلوومزبري مع شارع اكسفورد، اتجه يمينًا، وبعد حوالى ثلاث دقائق، كان قد وصل إلى محطة توتنهام كورت.

وبسرعة، هبط درجات السلم حتى وصل لبوابات الدخول، فمرر بطاقة الأويستر كارد على المنطقة الصفراء بالبوابة. ابتسم وهو يتذكر مجدي، ووصاياه التي حملها معه من القاهرة، ثم نزل في اتجاه خط السنترال. عندما وصل حيث أخبره سليم، لم يكد يعرفه، فقد كان حليق الذقن، يرتدي بالفعل بيجاما زرقاء، مدون علي ياقتها

«بيير كاردان»، وينتعل حذاءً مفتوحًا من الخلف، وتفوح رائعة عطر «أوكسجين» من ملابسه!

لما صافحه سليم، في دهشة خاطبه أحمد:

- أنت رجل المفاجآت.. صباحًا كنت مشردًا، والآن أنت مشردٌ أرستقراطي!

- لا تتعجب يا صديقي، فأمامك الكثير لتراه هنا الليلة. ولأخفف عنك، سأخبرك أننا سنتناول العشاء، ثم سنذهب إلى سينما الأمير شارلي، حيث اليوم حدث فريد، فستقام هناك حفلة بيجاما، وسيعرض فيها أجمل أفلام الثمانينات والتسعينات، في عرض متواصل طوال الليل.

- طوال الليل.. هنا في لندن؟ سأله أحمد.

- يا صديقي، هذه لندن الأخرى الزاخرة بالخبايا، والتي لا يعرفها إلا من التحم بتلك الطبقات الرمادية هنا. لو أعجبك الأمر، سآخذك غدا لنتجول في أحد المتاحف الليلية، التي قد لا يعلم بأمرها أهل لندن أنفسهم. وقد نذهب لحفلة شاي راقصة على ضوء الشموع، في أجواء العشرينيات من القرن الماضي، وقد نداعب هرموناتك الذكورية المتوثبة بالمرور بمعرض صور للنساء العاريات. انتظر، وسترى لندن، بعين مدربة على هتك ستر المدن وكشف خبايا ليلها.

ابتسم أحمد قائلًا:

- أنت يا سليم إنسان عجيب. من يراك الآن، وأنت تتكلم

عـن لنـدن هكـذا وأسرار ليلهـا، يشـهد لـك بأنـك مـن أهلهـا. ولـولا طلاقـة لغتـك العربيـة، وتلـك اللكنـة الخليجيـة التـي تقـاوم أن تظهرهـا في حروفـك، لخُدعـت فيـك.

قفزت نظرة ماكرة إلى عيني سليم وهو يقول:

- أيهـا المخـادع، أنـت تمـارس معـى الاعيـب الحـواة، وتنصـب لي فخًـا، حتـى أخـبرك مـن أي البـلاد أنـا. يـا صديقـى، يومًـا مـا سـنجلس وأروي لـك قصتـي؛ لكنـه بالتأكيـد ليـس هـذا اليـوم، فيجـب علينـا أن نتوجـه حـالًا لميـدان ليسـتر لتنـاول العشـاء، قبـل أن يبـدأ الحفـل. ولعلمـك، فـإن سـينما الأمـير شـارلي توجـد في نفـس المـكان، وأعـدك أنـك سـتقع عـلى كنـز حقيقـي مـن كنـوز الثقافـة البريطانيـة هنـاك.

- هل حضرت عروضا فنية من قبل في هذه السينما؟

- بـل أنـا يـا عزيـزي أزورهـا أسـبوعيًا؛ غـير أني حريـص عـلى حضـور الفاعليـات الخاصـة، والتـي نحـن بصـدد حضـور إحداهـا. إنهـا تعـد مـن أرقـى دور العـرض هنـا وأعرقهـا، ويكفـي أن تعـرف أنـك تسـتطيع أن تدخلهـا بجنيـه واحـد فقـط، ويشـمل أيضـا المشروبـات. هـذا الجنيـه يمكِّنـك مـن أن تسـتمتع بأجمـل العـروض التاريخيـة، والعـروض الأولى للكثـير مـن الأفـلام، وحضـور الفاعليـات المختلفـة. ولعـلي أخـبرك عـن أمـر غريـب حـدث لي مـع هـذه السـينما، فهـذه السـينما تعـرض أيضًـا أسـوأ أفـلام العـالم، ولقـد عصـف بي فضـولى ذات مـرة، فذهبـت لأشـاهد فيلـم الغرفـة، وهـو مصنـف عـلى أنـه أسـوأ فيلـم عـلى الإطـلاق للعـام ٢٠٠٣. هـل تعلـم يـا صديقـي كيـف صنـع

هـذا الفيلـم؟ ممثـل وكاتـب ومخـرج ومنتـج واحـد هـو مـن قـام بـه، ولأول مـرة منـذ سـنوات تشـاهد مشـاهد خارجيـة تصـور بالكامـل في الأسـتوديو، مـع خلفيـة ثابتـة، وتنفـذ بدرجـة احترافيـة تصـل للصفـر، وممثلـين يظهـرون ليتحدثـوا عـن أمـر، ثـم يختفـون حتـى نهايـة الفيلـم، ومشـاهد خارجـة تمامًـا عـن قصـة الفيلـم ومنهـا مشـاهد للكبـار، طويلـة ولا تعـرف مـن هـو الممثـل أو مـا هـو دوره.

قال أحمد:

- طبعًا هذا فيلم فاشل، فكيف لك أن تضيع وقتك لتشاهده!

ضحك سليم قائلًا:

- يـا عزيـزي، هـذا الفيلـم كان عـلى قمـة المبيعـات في وقتـه، وتـم عرضـه في حفـلات منتصـف الليـل بأمريـكا وكنـدا، وقـد وزع منـه عـددًا كبـيرًا مـن الاسـطوانات، بالرغـم مـن تصنيفـه عـلى أنـه أسـوأ فيلـم للعـام حينهـا. ولعـل هـذا مـا أثـار فضـولي لمشـاهدته، فأنـا يـا صديقـى أسـتمتع أكثـر برؤيـة الأمـور غـير النمطيـة. وأنـت كذلـك، وإن كنـت لم تتحـرر بعـد مـن سـلطة النصـف الأيـسر المسـيطر مـن عقلـك، الـذي يوجهـك بقواعـده الصارمـة وعقلانيتـه اللامحـدودة. يـا صديقـي، أطلـق العنـان لنصـف عقلـك الأيمـن، حيـث تسـكن الـروح، لـترى الدنيـا بعـين مختلفـة.. بعـين فنـان مبـدع.

كان قطـار خـط الشـمال، المتوجـه لمحطـة ليسـتر، قـد وصـل الرصيف. كانـت تبعـد محطـة واحـدة عـن محطـة توتنهـام كـورت، فأوقـف الرجلان الحـوار واسـتقلا القطـار. قـد يعتقـد البعـض أن مـا مـر بـه مـن تجـارب

مؤلمة أو مواقف سخيفة قد خلف لديه قدرًا من التبلد أمام المواقف الغريبة أو المفاجآت. حالة تشبه ما يقول الأطباء عن مناعة ما بعد الإصابة: العدوى.. الشفاء.. المناعة. لكن هذا كان ظن أحمد، بعد ما مر به من مواقف في أيامه القليلة في لندن، مجرد ظن.

ما حدث في تلك الأمسية قلب كل مفاهيمه وقناعاته رأسًا على عقب. بل إن ما حدث قد يفسَّر في عالمنا المتمسك بتراث الحكايات، وحيث ما زالت عقول البسطاء في آذانهم. ولكن أن يحدث ذلك في قلب لندن، مدينة الحضارة وقلب بريطانيا العظمى، فهذا أمر عجيب.

دعونا من المقدمات، ولنبدأ القصة..

وصل الاثنان إلى محطة مترو ليستر، في حوالي الساعة الثامنة والثلث مساءً. كانا قد اتفقا منذ البداية على تناول طعام العشاء في مطعم صيني أو هندي، فلم يلق اقتراح سليم تناول بيتزا في مطعم بيتزاهت القريب من الميدان قبولًا عند أحمد. تمسك أحمد باتفاقهما الأول، وتناول الطعام الصيني، بالطبع ليس بسبب النادلة التي ما زالت صورتها تزور مخيلته، ولكنها برودة الطقس التي لا يصلح معها سوى الطعام الصيني أو الهندي، بتلك التوابل الكثيرة، التي ستساعده على الشعور بالدفء. بعد جولة قصيرة في محيط السينما، علق أحمد أن اسمها تشارلز وليس تشارلي، فهز سليم رأسه موافقا في استهانة بالاختلاف. قابلا مطعمًا صينيًا واجهته مزينة بتمثال لتنين صيني، بجوار مطعم سبيشيال زوون ١٩٩٧، لم يستطع أيهما تبيُّن اسمه المكتوب بالصينية، لكنه كان يضع إعلانًا

عـن تقديمـه بوفيـه عشـاء مفتـوح، وبمبلـغ يقـل عـن تسـعة جنيهـات! كان الطعـام جيـدا، وقـد تجنـب الاثنـان اللحـوم ليتجنبـا إفسـاد الأمسـية قبـل أن تبـدأ. لاحقًـا، عـرف أحمـد أن سـليم مـن هـواة اللحـم البقـري المعـد بخلطـة المسـالا الهنديـة، ورغـم ذلـك فقـد جـاراه في تلـك الليلـة ولم يـأكل اللحـوم. في حـوالي التاسـعة والربـع، أنهـى الاثنـان عشـاءهم، وكانـت حفلـة البيجامـا بسـينما تشـارلز سـتبدأ في التاسـعة والنصـف، فدفـع سـليم الحسـاب، وتوجهـا إلى دار العـرض، التـي كانـت عـلى مسـافة خمسـين مـترًا مـن المطعـم.

اشـترى سـليم تذكرتـين للحفـل، بمبلـغ ٢٥ جنيهـا لـكل منهـما، ورفـض تمامًـا أن يدفـع أحمـد ثمـن تذكرتـه، قائـلًا:

- لا يـا صديقـي، أنـا مـن دعوتـك، وسـتكون هـذه الليلـة بكاملهـا في ضيافتـي، فـلا تحرمنـى هـذا الـشرف

ودخـلًا إلى قاعـة العـرض الأرضيـة، حيـث سـتبدأ الأمسـية بعـرض فيلـم «عـشرة أشـياء أكرههـا فيـك» والمأخـوذ عـن قصـة ترويـض النمرة، للكاتـب الإنجليـزي العالمـي شكسـبير. قبـل بـدء العـرض، نوهـت إدارة السـينما أنـه سـيتم اختيـار أفضـل بيجامـا مـن بـين الحضـور، وسـتمنح جائـزة لصاحبهـا. لا أخفيكـم سرًا، أنـه لمـا أتـى ذكـر الجائـزة، تحسـس سـليم ياقـة البيجامـا الزرقـاء، وكأنـه جـاء لينافـس عـلى الجائـزة، في حـين ابتسـم أحمـد في خبـث، وكأنـه قـرأ مـا دار بخلـد سـليم، فسـارع قائـلًا:

- أعتقد أنك أحق الحضور بالجائزة يا سليم..

ابتسم سليم في صمت، ولم ينطق.

عـادت إدارة السـينما تعلـن مفاجـآت الأمسـية، وطلبـت أن يتقـدم إليهـا مـن لديـه قصـة أو حكايـة غريبـة أو طريفـة مـن الحضـور، لضمهـا لفاعليـة الحفـل، وأعلنـت أن القاعـة العلويـة ستشـمل فاعليـات ترفيهية، وألعـاب بالبـار الملحـق بالقاعـة، لمـن يريـد في أي وقـت أن يسـتريح مـن المشـاهدة.

وبدأ العرض...

كان الفيلـم يحكـي عـن الأختـين بيانـكا وكات، اللتـين كانتـا عـلى النقيـض تمامًـا. فـ «كات» منغلقـة ومنبـوذة من الجميـع، و«بيانـكا» ذات شـعبية وقبـول طـاغ.. في حـين كان والدهمـا متحفظًـا ودائـما عـلى خـلاف معهـما.

سـارت الحفلـة والأجـواء جميلـة ودافئـة، حتـى اقـترب الفيلـم مـن منتصفـه. انطفـأت أنـوار القاعـة فجـأة، وانقطعـت الكهربـاء تمامًـا.. إنـه أمـر غـير معتـاد هنـا! وبـدأ الهمهـمات والتململ يمـلأ القاعـة، ولكـن فجـأة دوَّى صراخٌ في الطابـق العلـوي!

وبـدون مقدمـات، اندفـع رواد القاعـة في الطابـق العلـوي بشـكل هيسـتيري إلى الأسـفل، وكنتيجـة للتدافـع والظـلام، بـدأ الاصطـدام وتعالـت صرخـات متفرقـة هنـا وهنـاك. وفجـأة، سـكت كل هـذا الهـرج.. ليـس سـكونًا، بـل سـكوت الفـزع. ظهـر مـا لم يتوقعـه أحمـد ولا سـليم، ولا أحـد قـط.. إنـه جسـم مـضي، يطـير بالقـرب مـن سـقف قاعة العـرض، أشـبه مـا يكـون بفتـاة ترتـدي ملابـس بيضـاء ملوثـة بالدمـاء، وينغـرس في ظهرهـا سـكين كبـير. أفـاق النـاس مـن ذهولهـم،

وبـدأت الصرخـات تعلـو، وبـدأت حالـة الهـروب الجماعـي مـن القاعـة. وبسـبب الظـلام الحالـك، كان الهاربـون يصطدمـون بالحوائـط أو بالأبـواب المغلقـة مـن الخـارج. حـاول البعـض اسـتخدام إضـاءة شاشـات الجـوالات، ولكـن لم تفلـح كثـيرا مـع التدافـع الشـديد.

ومثـل الباقـين، حـاول أحمـد وسـليم الخـروج هربًـا، ولكـن فشـلت محاولاتهـما. بـدأت الفتـاة التـي كانـت تجلـس بجـوار أحمـد بالـصراخ الهسـتيري، فالتفتـا إليهـا، فـإذا بهـا قـد سـقطت عـلى ثيابهـا قطـرات مـن الدمـاء، التـي ظهـرت في ضـوء أجهـزة الجـوال. قبـل أن يفعـل أحـد أي شيء، ارتفعـت الفتـاة عـن الكـرسي، وهـي تصرخ وتحـاول التشـبث بأحمد وسـليم، اللذيـن حـاولا التمسـك بسـاقيها، قدميهـا ولكنهـا أفلتـت منهما وارتفعـت عاليًـا. وقتهـا فقـط، عـرف الاثنـان معنـى الرعـب الحقيقـي.. تابعـا الفتـاة التـي بـدا أنهـا دخلـت في صدمـة فسـكت صراخهـا وارتخـى جسـدها وهـو لم يـزل في صعـوده، حتـى فُتحـت فجـوة في السـقف، ظهـر وراءهـا دخـان كثيـف، واختفـت الفتـاة داخلهـا.

وقبـل أن تنخفـض العيـون عـن السـقف، شـهقت الحناجـر والفتـاة يُلقـى جسـدها ممزقًـا ومنـزوع الـرأس!

انخفضـت الأصـوات.. وتحـول الـصراخ إلى بـكاء هيسـتيري مكتـوم، وكأن النـاس تخـاف أن تكتشـف الأشـباح مكانهـا. انهيـار وإغـماء وصدمة ورعـب.. وفجـأة، أضـاءت كل أنـوار القاعـة مـرة واحـدة. وارتفـع صـوت المذيـع الداخـلي قائـلًا:

– شبح سينما تشارليز يرحب بكم، ويتمنى لكم أمسية سعيدة

وظهر مدير الدار على المسرح قائلًا:

– مـن فضلكـم، عـودوا إلى مقاعدكـم، فأنتـم وللحظـات قصـيرة عايشـتم تـراث سـينما تشـارليز

وبـدأ يحكـي تاريـخ السـينما، وكيـف أن الطابـق الأعـلى تـدور حولـه القصـص المخيفـة عـن الأشـباح التـي تسـكنه، والتـي يتناقلهـا موظفـو الـدار، وخاصـة العاملـون منهـم بالقاعـة العلويـة.

صفـق الحضـور، وهـدأت القاعـة.. لكـن أحمـد وسـليم كانـا قـد عزمـا عـلى المغـادرة، فثقافـة «متعـة الرعـب» ليسـت لهـما. وبالفعـل، غـادرا العـرض وسـليم يلعـن إدارة الـدار، ويسـبهم بصـوت مرتفـع، وأخـرج قلـمًا أحمـر مـن جيبـه، وكتـب عـلى حائـط القاعـة مـن الخـارج سـبابًا وشـتائم نابيـة باللغتـين العربيـة والإنجليزيـة.

افترقـا محبطَـين وقـد فسـدت الليلـة، وعـاد كلٌ إلى منزلـه. وفي هـذه الليلـة، فشـلت كل محـاولات أحمـد للنـوم، وراح شـبح الفتـاة التـي كانت تجلـس بجـواره يطـارد أحلامـه، حتـى أوشـك الفجـر عـلى البـزوغ.

❋ ❋ ❋

الفصل السابع

رحلة على صفحة النهر

يا له من قدر يرسم خطوَنا دوما! لم يعثر العلماء بعد على الحلقة المفقودة بين تطور القرد والإنسان، لإثبات صحة نظرية النشوء والتطور الجسدي، بينما هناك العديد من الوسائل والنظريات لنشوء وتطور العلاقات بين الأفراد، في المجتمع الواحد أو المجتمعات المختلفة، تجمعها كف القدر. ولنسبر أغوار تلك البداية، التي تبدو غريبة على قصتنا، دعونا نعلم أن العلاقات الإنسانية، وخاصة تلك التي تمس الروح: كالصداقة والحب والبغض، هي مثل نبتة صغيرة، بذرت بذرتها ذات يوم وسط وادٍ خصب، فتقبلها قبولًا حسنًا واستنبتها، وهي في ذلك تحتاج الماء الهواء وفيض وقت، حتى تنمو وتترعرع.. فتزهر ثمرًا أو شوكًا. غالبا ما تأتي الثمرة بعد فترة زمنية ليست بالقصيرة، لكن هناك استثناء قد يفرض ذاته علينا، عندما يقودنا القدر معترضًا أيام البعض بعذاباته أو بمعوقات وصعوبات،

تجبر هؤلاء البعض على التجمع والانصهار في بوتقة واحدة بشكل سريع، والتوحد أمام الخطر المشترك، للعمل لتحقيق هدف واحد: النجاة!

ما كان ليحدث أن يختصر الزمن ويصقل الصداقة كالعبور من ثقب أسود، كما فعلت حادثة أو خدعة شبح سينما تشارلز، والتي أعلنت عن علاقة صداقة حقيقية بين أحمد وسليم، حين صهرهما الرعب، في فجاجة كسرت كل قواعد المعقول، وكل حواجز الاختلاف والتربص. لم يكن أحدهما يتوقع التقارب بتلك السرعة، وكان الحذر يغلّف معظم حوارتهما قبل تلك اللحظات بالمكر والدهاء المتبادل، في محاولات دؤوبة من كل جانب لكشف خبيئة الآخر.

اليوم، ما إن استيقظ أحمد من نومه، حتى مد يده إلى الرف أعلى السرير، فالتقط الجوال ليطلب سليم ويطمئن عليه.. أو به. رن جرس الهاتف لفترة طويلة، قبل أن يأتيه صوت سليم ناعسًا من الجهة الأخرى، متحدثا بالإنجليزية:

- صباح الخير، سليم يتحدث.. من معي؟

- أنا أحمد يا سليم، أما زلت نائمًا؟

وعلى عكس ما توقعه، جاءت إجابة سليم...

- هذه هي الليلة الأولى منذ أكثر من الأسبوع، أسقط نائمًا في كهف عميق من السكون والراحة.

جملته تلك كانت كفيلة باستدعاء الخجل في نفس أحمد، والذي بادر بالاعتذر عن إيقاظه من نومه؛ لكن سليم سارع يقاطعه:

– لا عليك يا صديقي، أنا اقدر اتصالك للاطمئنان عليّ بعد حادثة الأمس. بل إنني أعتذر انني استسلمت للنوم حتى الآن، ولم أسبق للاطمئنان عليك.. كيف كانت ليلتك؟

ابتلع أحمد ريقه، ولم يحاول أن يخفي ما به، فسليم هو شريكه الوحيد في تلك التجربة الرهيبة..

– بالكاد نمت قبيل الفجر.. روادني كابوس واحد طوال الليل. أرى تلك الفتاة التي كانت تجلس إلى جوارنا وهي تتجول في طرقات الفندق مقطوعة الرأس

في أسى عقَّب سليم:

أنا مدين لك باعتذار.. هناك جزء حقيقي مما حدث، وليس كله مجرد عرض بترتيب إدارة المكان. تتردد الشائعات هنا، ويصدقها كثيرون، عن شبح يسكن الطابق الأعلى من سينما تشارلز.. ذلك سبب الهلع الذي رأيته بالأمس، لكونهم يعلمون ذلك الأمر المرتبط بتاريخ السينما منذ نشأت. كان من الواجب عليَّ قبل اصطحابك إلى هناك أن أخبرك بذلك التاريخ، كي تأخذ حذرك. أرجوك، تقبَّل اعتذاري، لكنني مثلك لم أعتد مثل تلك المواقف هنا.

مبديًا التماسك قال أحمد:

– لا عليك يا سليم.. ولعلك تكون ضيفي اليوم، فأنت استضفتني بالأمس، وأنا اليوم أريد أن أستضيفك على عشاء عائم فوق صفحة نهر التايمز.

بسرعة وبدون تردد، قبل سليم العرض معقبًا...

– سأكون أمام الفندق الذي تقيم فيه، في تمام الساعة السابعة مساءً.

وفي تمام الساعة السابعة، تقابلا أمام الفندق في شارع بلوومزبري، واستقلا قطار المترو من محطة توتنهام كورت إلى محطة ويست مينستر، حيث ساعة بيج بين وعين لندن الشهيرة. وعلى موعد مع قدر سيعيد تشكيل حياتهم جميعًا كانا. ففي لحظة صعود الاثنين، مستخدمين السلم الكهربائي، وصل إلى سمعهما صوت جيتار كهربائي. حدثته نفسه أنها جيني، بل لقد تمنى أن تكون هي بالفعل. ولعل القدر يستجيب لأمنية أحمد هذه المرة، تلك الأمنية التي غلفتها مشاعر إنسانية راقية، تعوِّض تلك المشاعر التي رافقته خلال ليلته السابقة، ومغايرة لما كان يخطط له تمامًا، حين وضع نفسه في داخل طرقات سوهو. وجه حديثه لسليم قائلًا:

– أعتقد أن ذلك الجيتار تعزف عليه أنامل جيني الرقيقة، فهل تسمح لي بدعوتها لتنضم إلينا على العشاء؛ إن كانت هي فعلا من تعزف؟

– جيني! تلك المشردة محترفة العزف، التي أخبرتني عنها من قبل، والتي تسكن حديقة تطل على النهر؟

– نعم هي

جاء تعقيب سليم غريبًا حين أردف:

– أعتذر عن قبول دعوتك لها في هذه الحالة يا عزيزي.

تصلب وجه أحمد للحظات، ولم يجد ردًا مناسبًا، ولم يسعفه عقله

لمواجهة مثل هذا الرد البارد من سليم. وقبل أن يستجمع أفكاره، أكمل سليم:

– بل أنا من سيدعوكما أنتما الاثنين على العشاء، ولن أقبل غير ذلك.

اتسعت ابتسامة مودة دافئة على وجه أحمد، معلنةً مشاعر فرح لا يدري سببها، ربما قد ولدت للتو في نفسه وهو يتأمل صاحبه ويفكر.. "من أنت أيها الرجل؟ كيف لي أن أصل إلى أعماقك، فأنت كريم يا سليم، وتملك قلبًا نقيًا.. تعايش الفقر وأنت تملك ما تملك.. يحبك العابرون بلا تكلف ولا تصنع، وتترك آثارك عليهم. من أنت.. أيها الغريب في بلد غير بلدك، وأهل غير أهلك؟ وكيف تحمل هذه الروح الدافئة في وسط هذا الجمود الذي يعبر الأيام هنا، متسكعًا في الطرقات، لا تجد رفيقًا سوى الضباب والبرد، وذاتية أحاطت شباكها بالجميع فلم ينجُ منها أحد؟!

لما وصلا حيث موضع الصوت، كانت بالفعل جيني هي من تعزف، يعلو وجهها الشاحب ذات الجمود الذي تركت عليه الأيام علامات الأسى والحزن. كانت تعزف أغنية لنفس المغنية سلين ديون، ولكنها هذه المرة كانت أغنية من فيلم تايتنيك.. كانت الأغنية تقول: قلبي سيستمر (My heart will go on).

متعجبًا أحمد من كلمات الأغنية: «قلبي سيستمر".. حدث نفسه: كيف له أن يستمر أيتها الرقيقة بعد هذا الفقدان، وكيف لقلب وحيد أن يستمر بعد أن غادر رفيقه مع قطار المغادرين، بلا عودة؟

إنه قلب لا يملك سببًا يجعله ينبض كل صباح معلنًا للدنيا أنه ما يزال على قيد الحياة.. قلب دقاته رجعها نحيب، وآثاره قطرات دموع جمَّدها الصقيع. هل لقلبك يا جيني قوة تكفيه كي يستمر؟!

وقف الاثنان يستمعان لغنائها العذب وعزفها الراقي، وعلى موعد مع اكتشاف جديد كان أحمد.. فقد تسللت كلمات الأغنية ونبرات جيني الصادقة إلى أعماق سليم، تعصف بمشاعره حتى لم يملك السيطرة عليها، فلما وصلت جيني لجملة "أنت آمن في قلبي، وقلبي سيستمر ويستمر" انهار سليم باكيًا، وكاد أن يسقط على الأرض لولا أن أسنده أحمد، مرتكزًا على جدار المحطة البارد! هذا المشهد أجبر جيني على التوقف عن العزف بسرعة، لتمسك بسليم مع أحمد وهي تنظر إليه متسائلة عن رفيقه..

- أحمد.. ماذا أصاب صديقك؟

- لا أعرف يا جيني.. هذه أول مرة ينهار فيها أمامي بهذا الشكل!

أسرعت جيني، فأحضرت من حقيبتها زجاجة مياه صغيرة، وأسندت رأس سليم وهو جالس على الأرض إلى كتفها، وسقته القليل من الماء، وفي لهجة آمرة وبشكل مقتضب وجهت حديثها إلى أحمد:

- من فضلك اجمع أغراضي، فأنا سأذهب معكما.

وفي حين انشغل أحمد في جمع الأغراض، راحت جيني تربت على كتف سليم وتمسح دموعه بكفها البارد، وهو يبكي كطفل ضل في

متاهة عن أبيه وأمه. وبالرغم من غرابة الأمر، لم يتوقف أحد من الركاب ليمد يد المساعدة، أو حتى ليستعلم عن الأمر. حسنًا، لا داعي للعجب، فهذا ما اعتادته تلك مدينة الضباب الباردة!

على عجل، انتهى أحمد من جمع أغراض جيني، ووضع الجيتار في حقيبته، ثم حمل كل ذلك على كتفه الأيمن، وأعطى كتفه الأيسر لصديقه، وأعطته جيني السند من الجانب الآخر. غادر الثلاثة محطة ويست منيستر في وجوم، وقد خيم الصمت عليهم إلا من نهنهات سليم، حتى وصلوا عند السلم الهابط نحو ضفة النهر. سألت جيني:

- أحمد إلى أين أنتما ذاهبان؟

أشار أحمد بيده إلى الباخرة التي كانت ترسو على مسافة تبعد عدد درجات السلم الهابط، ولم يدر ما الذي ينبغي أن يقول بعد هذه التغيرات التي طرأت. فهمت جيني من إشارته أنه يدعوها للانضمام إليهما على العشاء العائم، والذي كان إعلانه معلقًا مباشرة أمام ذلك الكشك الذي تجلس فيه بائعة التذاكر. قالت جيني:

- أكنتما تنتويان الصعود لهذه الباخرة؟.. إنها تبدو جميلة، وستغيِّر في قلوبنا الكثير.. نعم نعم أقول قلوبنا.. أظن أنه يمكنكم دعوتي، وسأقبل فورًا

كانت جيني تحاول بث المرح قليلًا في قلب ذلك الرجل الحزين. شغلها ما كانت ترى من حطام رجل يستند إلى كتفها منهارًا تحت وطأة كلمات ولحن الأغنية. لقد رأت فيه نفسها يوم غيَّب الموت هاري،

واستدعت حزنها الدفين وهي تمسح تلك الدمعات على وجه سليم. الأسى والوحدة والفقد.. ثقب أسود يبتلع الروح، ويترك كائنا هشًّا ينهار مع بعض الغناء. قبلت الدعوة، وتمنت ألا يرفع سليم رأسه عن كتفها. ربما قد ارتاحت لأنفاسه الحارة تداعب خصلات شعرها وتذكرها بدفء أنفاس هاري، فهي لم تكن لتسمح لأحد أن يضع رأسه على كتفها منذ رحيله.

في بطء، هبط ثلاثتهم درجات السلم، ومن فوره وضع أحمد الجيتارعلى الأرض بجوارهما، وتوجه إلى كشك بيع التذاكر. أطلت الحيرة، حين وقف أمام العديد من الرحلات لا يدري لأيها خطط سليم، فقد هيَّأ نفسه قبل أن يستقلا المترو أن سليم هو من سيختار الرحلة المناسبة، لدرايته الكاملة بأسرار المدينة وخفايا طرقاتها، ونزهاتها. إن ذلك الرجل يتعاطى الحكمة في كل خيارته، كما خبره أحمد، ودوما يضع أقصوصة ما كي تروى لاحقًا، فلم تكن خيارته أبدا مصادفة في لحظة عابرة، إنما يضرب اختياره بريشة مبدع يرسم لوحة فتضيف خطوطه وألوانه أثرًا ومتعة لأبعد نقطة في ذات رفيقه، وتمس إنسانيته وتستمطر روحه.

لكن تأتي الرياح بما يُغري السفن بالإبحار، ثم إذا هي تعصف بها في وسط البحر، وها هو سليم نائم كالطفل على كتف جيني. توقف أحمد أمام اللوحات الإعلانية وجداول المواعيد، محاولًا معرفة الأسعار والخدمات وقائمة الطعام المقدمة على جميع الرحلات المتاحة، ومدة الرحلة. استقر رأيه على شركة تسمى «باتوكس» ومركب تدعى «سيمفوني"، فقد كانت رحلتها على وشك البدء،

وتذكرتها شاملة العشاء على منضدة بالقرب من مسرح الفرقة الموسيقية على الباخرة، ثم يسمح للضيوف بالرقص بعد انتهاء العشاء مع الموسيقى الكلاسيكية. كان ذلك في رأيه مناسبًا لأجواء رحلة فوق صفحة النهر. راح يراجع ما لديه من نقود، فقد كانت قيمة التذكرة للفرد الواحد حوالى تسعة وستين جنيهًا. حين وقف أمام شباك التذاكر مترددا، قابلته البائعة العجوز بابتسامة حانية، وفاجأته بسؤالها:

- أنت مصري؟

أجابها أحمد بإيماءة من رأسه، وابتسم وقد ذهب عنه التردد إثر تلك البادرة الودود منها. ناولها النقود لدفع ثمن التذاكر، وهو سعيد أنه قد فوَّت الفرصة على سليم لدفع ثمن العشاء. شكرها أحمد، وقبل أن يتحرك، سألته:

- هل مصر جميلة كما كانت قديمًا؟ وهل بعد تلك السنوات التي عانتها، لا يزال هناك ثمة أمل ينبض أن تحيا بعد موات؟!

لم تنتظر إجابة منه، وأخبرته عن أمنيتها أن تزور ذلك البلد بعد تقاعدها.

- سيدتي الطيبة، حين تحط قدماك بمصر، اقبلي دعوتي لزيارة آثار من عبروا، مُلهِمِين بأرواحهم القادمين من خلف حجب المستقبل. وأدعوك للتبرك بأرواح الفرسان الذين سقطوا في مواجهة آلة القتل والتعذيب، ناذرين أنفسهم مصابيحًا تضيء لآخرين

كان يناولها في تلك اللحظة بطاقة العمل، وعليها قد دوِّنت

بيانات الهاتف والبريد الإلكتروني. ابتسمت البائعة في حنو بالغ، وناولته التذاكر، وأخبرته أن يتوجه الآن هو ورفقته بسرعة للمرسى، ذلك أن الباخرة على وشك الإبحار، وتمنت له رحلة سعيدة. عادت تناديه وقد ترقرت دمعة في عينيها، وهي تطلب منه أن يمر بالمرسى ليلقى عليها التحية، إذا ما حضر مرة أخرى إلى ويست منيستر.

ساعة بيج بن على البر الآخر من الشارع خلفه تعلن دقاتها الثامنة مساءً. دقائق فقط، ويحين موعد إبحار الباخرة. بسرعة، حمل أحمد حقيبة جيني والجيتار، وهو ينظر إلى سليم الذي لم يزل مستندًا إلى كتف الفتاة، ولم تتململ هي من ذلك، ولم يبد عليها الضجر من ثقله على كتفها. توجهوا جميعا إلى يمين أكشاك التذاكر، حيث مدخل المرسى للصعود إلى سطح الباخرة. هنا، كان سليم قد استجمع وعيه كاملًا، وأحس بالخجل لاستناده الطويل إلى كتف جيني. شكرها من قلبه على كل شيء، وجاء ردها بابتسامتها العذبة التي تألقت رقةً على وجهها، لتبث الدفء للأصدقاء في ذلك الجو البارد.

- من دفع ثمن التذاكر؟!

سأل سليم، فأجابه أحمد مبتسمًا:

- أنت منحتني هذا الشرف يا سليم

أصر سليم على إعادة قيمة التذاكر إلى أحمد..

- من فضلك خذ النقود، فأنا لم أعتد أن أخلف وعودي، وخاصة هذه المرة.. إنه أقل ما أقدمة لفتاة تمتلك كل هذه الرقة والعطاء.

قالها بالعربية لكي لا تفهم جيني ما يقول، ومد يده بالنقود إلى أحمد، الذي تناولها ضاحكًا..

- لك هذا يا سيد سليم.

ما إن صعدوا إلى سطح الباخرة، حتى تركت البر، وبدأت التحرك. سرعان ما عاد سليم إلى سابق عهده، قبل انهياره في المحطة، وكأنه شخص غير الشخص الذي غيبته الأحزان منذ دقائق. والأعجب، أن وجه جيني علته ابتسامة سعادة، بدت في عين أحمد غريبة على ذلك الوجه الذي اعتادته الأحزان. وكان أحمد يرى.. ويسمع.. ويبتسم.

دقائق قليلة وأتى النادل إلى حيث جلسوا، وسألهم عن طلباتهم من الطعام والشراب، وناول ثلاثتهم قائمة الطعام الأنيقة، فأخذوا في تصفحها وقد انفتحت شهيتهم. خيار جيني الصحي من شرائح السلامون بالسمسم والبرتقال المطهو ببطء على البخار، مع شوربة فواكه البحر، وعصير البرتقال كان أول ما دوَّنه النادل في دفتره، ثم اختار أحمد قطعة لحم ستيك، مطبوخة مع عيش الغراب، وأرز وسلطة خضراء، مع عصير البرتقال أيضا. أما سليم، فقد اختار طبق السمك البوري المشوي وبطاطس وسلطة فواكه البحر مع بيبسي. راجع النادل خيارات الطعام المطلوبة بسرعة، وأومأ الجميع مؤكدين عليها، قبل أن يبتسم النادل ويحييهم منصرفًا.

كانت الباخرة تتأرجح في حنو فوق صفحة النهر، والنسمات تداعب الجميع. وبالرغم من برودة الجو، إلا أن ثمة دفء احتضن ثلاثتهم،

وروح ملائكية أحاطت بهم، فمنحتهم السكينة والراحة، فسكتوا عن الكلام ينصتون إلى الموسيقى.

كان سليم هو أول من بادر بالحديث، عندما وجه نظرة امتنان ناحية جيني قائلًا:

- أسعدتني مقابلتك والتعرف إليك جيني. أشهد لك أن عزفك رائع، وصوتك ملائكي، يتغلغل في النفس ويمس القلب بشكل يصعب معه التماسك مهما حاولت.

والتفت إلى أحمد محدثًا..

- شكرًا يا أحمد على تلك الهدية الرائعة.

احمر وجه جيني، وابتسمت في خجل قائلة... بل أنت رقيق المشاعر وطيب القلب يا سليم، وأنا بالفعل أشكر أحمد أن عرَّفني على شخص مثلك. قليلون هم الذين لا يزالون يحملون نفوسًا نقية في لندن.

وبشكل مباغت، مدت يدها اليمنى لتصافح سليم، والذي على الفور مد يده ليصافحها، بينما تقول:

- يسعدني حقًا أن نصبح أصدقاء

في أثناء ذلك كانت الباخرة تمر بالقرب من كاتدرائية سانت باول. كانت مهيبة تحت الظلام، وتأثير الموسيقى. راح الثلاثة يتبادلون الحديث حول جودة الطعام، وإجادة العازفين، وغشيت ليلتهم حالة من المرح والصفاء.

سألت جيني:

– أحمد، كيف سارت أمورك في لندن؟ أتمنى أن تكون مستمتعًا رغم كل شيء

نظر أحمد إلى سليم، وأشار إلى رقبته، وانفجر هو وسليم في نوبة من الضحك المتواصل، فقد تذكرا ليلة الأمس. كانت تنظر إليهما محاولة الابتسام، ولكنها بدأت تغضب حين طال ضحكهما، فهي لم تقل ما يدعو لهذا الضحك. لكن قبل أن تعبر عن غضبها، تماسك أحمد ورسم على وجهه علامات الجدية المصطنعة قائلًا:

– عزيزتي سأمنحك الفرصة للاستماع إلى خبير لندن الأول، السيد سليم، وهو يقص عليك حكاية سندريلا والبيجاما الزرقاء ماركة بيير كاردان.. سليم، من فضلك لا تنس عطر أوكسجين

هز سليم رأسه وتوقف عن الضحك هو الآخر، وأخذ يقص على جيني مغامرة الأمس، وهو يطعِّمها بتعليقاته الساخرة، وبسؤالها عما إذا كانت تعتبر ذلك استمتاعًا، وجيني لا تتمالك نفسها من الضحك، حتى قطع ضحكاتهم وصول أطباق الطعام، فانهمك الثلاثة في تناوله، وعادوا للهدوء والإنصات للموسيقى الحالمة.

ثم رفعت جيني عينيها إليهما.. لم تحب الصمت، فالليلة بالنسبة لها استثناءً أرادت أن يكتمل. طلبت من أحمد أن تتذوق قطعة ستيك من طبقه، وبالطبع لم يمانع، ثم بدأ الثلاثة يتشاركون أصناف الطعام الموضوع على الطاولة، ويعلقون على مذاقها، في جو من المرح والصداقة، التي قد يعتقد من يشاهدهم أنها قائمة منذ سنوات.

ما إن انتهى العشاء، حتى خفتت إضاءة المكان، وراحت الفرقة

تعزف مقطوعات موسيقية هادئة قصيرة، وبدأ الحضور من الشباب والفتيات يقومون إلى الساحة أمام الفرقة، وبدأ تمايل العشاق مع رقصة الفالس.

«يوهان شتراوس المسكين"، تلك كانت الكلمات التي تحدثت بها جيني، وهي تحول عينيها عن موقع الرقص، وملامح وجهها تنبئ أن لديها ما تريد أن تتحدث عنه. صمتُ أحمد وسليم المُشجع جعلها تكمل قائلة:

– هناك من يحولون المشاعر الإنسانية إلى خطوات ميتة، لا تحمل روحًا، وهم في اقترابهم أو ابتعادهم سواء. كم من قريب منك وروحه وقلبه يسبحان في أودية بعيدة، وإن تلقاه، فإنه يمنحك شرف مجالسة جسد ميت

ثم أدارت وجهها ناحية موضع الرقص مكملة:

– أترون كيف يلف الجمود مشاعرهم، وكيف يتحركون في رتابة من يقوم بعمل ما، دون أن يبثه مشاعره أو تمتزج به روحه؟ هؤلاء يعبرون الطريق بأرواح تائهة، تئن في متاهة الدنيا تحت شدة الخوف مما يحمله الغد. إن لديهم ما يخافون عليه، فتحول خوفهم إلى إطار لأرواحهم لا يستطيعون الهرب منه. يا سادة، هذه أرواح ضائعة، مهما ارتدت أجمل الملابس أو تعطرت أو تذوقت لحم الستيك الذي يفضله أحمد؛ وإن كنت أشك في ذلك

إضافتها الأخيرة صاحبتها ابتسامة مرحة وهي تنظر نحو أحمد، الذي علَّق على قولها:

- فلترفقي بي جيني، فلست مثلكما أيها المتحذلقان المسكينان، أنا رجل أتذوق الحياة مهما كانت نكهتها، ولا أحمل داخلي حلمًا ما، فأصبح أسيرا له دومًا، وأعبر الطرقات أبحث عنه في ذوات الشخوص الذين ألتقيهم كل يوم، أو هؤلاء الذين يعبرون دربي فجأة. يا سيدتي - مشيرًا إلى نفسه - هذا الجسد يتسق مع هذه الروح، ولا أريد غير ذلك، وليذهب الفالس إلى الجحيم لو كان تلك الخطوات تعني أن أهيم في الطرقات كالمجانين.. مثلكما.

قال كلمته الأخيرة وهو يضحك ويتراجع في مقعده.

كانت دعابة ثقيلة، لكن سليم ابتسم ولم يبد أية مظاهر للغضب أو الامتعاض من كلام أحمد. تجاهلت جيني ما حدث، ونظرت لسليم قائلة:

- هل يتفضل الأمير صاحب البيجاما الزرقاء بمنحي شرف الرقص معه، حتى يشاهد السيد المتسق هذا كيف تحيي الروح خطوات الفالس؟

اعتذر سليم عن تلبية رغبتها بالرغم من إصرارها، فالتفتت جيني إلى أحمد، لكنه أشار بكفه..

- لست أنا ذلك الشخص

لكنها لم تكن لتسأله أن يرافقها، وإنما قالت:

- لا تخف أيها المتسق، فأنا أستطيع الرقص وحدي

وفي لحظات، كانت في وسط الراقصين، في حركة جنونية لا تصدر إلا من تلك الفتاة، وراحت تتحرك كالحلم الراقص وحدها في منتصف المسرح الخشبي المعد لذلك أمام الفرقة الموسيقية.

بعد لحظات من المتابعة لتلك الفتاة الغالب عليها الجنون، نظر سليم لأحمد قائلا:

- هذه الفتاة موهوبة. أنظر كيف تحرك قدميها في خفة راقصة باليه، وهي ترقص الفالس تلك الرقصة الرائعة التي تناسب بالفعل مقطوعة الدانوب الأزرق ليوهان شتراوس.. أنظر، إنها تتذوق النغمات كطائر يطير مستمتعا بين الزهور.. يا لها من روح وفيض مشاعر تتحرك على قدمين.. نبتٌ رقيق لا يستطيع أن يتحمل جنون ونقاء تلك الروح.

محدقًا للحظات، شاردًا في الأفق الممتد بعيدًا، والذي غمرته ظلمة تتخللها أنوار الدعايات، التي عجزت عن إخفاء الرتابة والجمود على الشاطئ القريب، حاول أحمد استرجاع حركات جيني في رقصتها، محاولا الوصول إلى العمق الذي يتحدث به سليم. وكأن كلمات سليم قد أنهكت تفكيره، وشلت قدرته على مجاراة هذا الرجل الجالس أمامه.. نظر فجأة إلى سليم متسائلًا:

- أنت خبير بالرقص إذًا؟ فلماذا لم ترقص معها؟ أم أنك خفت أن تمسك يديك فتاة مشردة، قد تكون محملة بالأمراض التي قد تنتقل إليك.. وقد رأيتك ونحن نتبادل الطعام تتجنب ذلك؟

مثل هذا الاتهام كان كفيلًا بأن يدمي إنسانية سليم، لدرجة جعلته يبدو كالعاجز عن الدفاع عن نفسه، فاستحلت دموعه حرمات عينيه، فسالت دون أن يحاول إيقافها. كل ما فعله أن وجه نظره للحظات ناحية النهر، محدثاُ نفسه في صوت يكاد يسمعه من يجلس بجواره،

ويحمل صدى آلام وأحلام كفنت إلى غير رجعة. تلك الكلمات، التي ظل وقعها يتردد على أحمد لسنوات بعد ذلك اليوم، يصاحبها ذات الشعور وسليم يقول:

- محملة بالأمراض!

توقف للحظات يستجمع بعضًا من شجاعة، تمكنه من المضي قدما في كشف خبيئته، التي لم يعلمها أحد من قبل..

- يا أحمد.. لم أخش ذلك، وأعلم أنك مخادع، وتمارس نفس الحيل، فتجذب الحديث إلى حيث أردت، كي تكشف ما يخفيه محدثك. لكني أنا من سيسقط كل الأقنعة، بل سأمضي بعيدًا، أن أسقط كل ممارساتي وكل ما أبديه من حكمة وخبرة، لأضع أمامك حالة إنسانية لرجل تعبره الأيام، وفي كل ليلة ليس له دعاء سوى أن تكون تلك ليلته الأخيرة. ولكن بقية من روح ما زالت تعبث به في كل صباح، وهي تسخر منه أنه مازال به بعض أنفاس كافية أن تذيقه مرارة يوم جديد، يحياه ضائعًا بلا ملجأ ولا سكن، ولا شيء سوى صدى أنفاسه ترددها جدران غرفته الباردة، وتردها وجوه العابرين حبلى بالألم والمرارة، ثم ما تلبث أن تلد العذاب الذي يكبر كل يوم، حتى إذا ما جاء الليل كفنته كف الظلام، وهكذا في كل يوم مولود جديد.

كلمات سليم تلك كانت كفيلة بانسلاخ كلاهما عن الأجواء المحيطة. صمت أحمد وهو مسمر العين جعل سليم يكمل...

- خفت عليها يا أحمد، كما أخاف أن أنقل مرضي لكل من

أعرفهم.. أنا هو المريض وليست تلك المسكينة. أنا من يعيش وحيدًا، ولا أحتفظ في محيطي بأرواح بريئة، فأعرضهم للهلاك بسببي.. وكيف لي أن أتحمل مثل هذا الشعور بالذنب؟ وكيف لي أن تهدأ نفسي وأنا أضعهم في مثل ذلك الخطر الذي أعايشه، ولا مهرب منه إلا بالموت؟ الموت لا يأتي أبدًا، ولا أقدر أن أذهب إليه بنفسي.

كلمة الموت التي نطقها سليم، وحملت كل أنواعالأسى والألم، نسجت حزنًا أحاط بالاثنين، فخيم الصمت على المشهد، حتى قطعه سليم قائلًا:

- أعيش مشردًا منذ سنوات، لا أملك خيار الرجوع إلى بلدي وأهلي.. فارقت زوجتي وأولادي، وتوفي أبي ولم أستطع أن أقبل جبينه النادي، ويالـه من ألم..

سالت دمعة حارة فوق خده، جاهد ليخفيها خلف قناع الصمود المرسوم في صمت على وجهه، لكنه فشل..

- لم أر أمي خلال تلك السنوات. أنا هنا ضائع من سنوات، وكيف يكون الضياع غير هذا؟.. روح وحيدة تعبر مستنقع الحياة البارد في صمت!.. لا يعلم مكاني سوى أخي، الذي يباشر ميراثي وأعمالي هناك، وهو من يودع المال في حساب بطاقات الائتمان الخاصة بي؛ تلك التي رأيتها. هل هناك ضياع أكثر من ذلك!!

دخل سليم في نوبة من البكاء، وتردد أحمد قبل أن يسأله:

- أي مرض ذلك الذي يمنعك عن أهلك كل هذه الأعوام، لتعيش كالمشردين وخلفك أهلك وأولادك يا سليم؟

صمت سليم كأنه يعبر محيط التردد، قبل أن يخبر أحمد بقصته، منذ قدم لندن لأول مرة منذ سنوات. بدأت باستخدام كابينة الهاتف في الشارع لأول مرة. ولأنه قادم من الشرق، حيث قائمة الممنوعات كبيرة، هاله أن يرى صور الفتيات يعلنَّ عن أنفسهن داخل كل كبائن الهاتف. ثم توالت حكايات الأصدقاء عن الحرية هنا، وعن تجارة الرقيق والفتيات اليابانيات والكوريات، محترفات المساج وأنواع المساج المختلفة.. حتى غلبه الشيطان ذات مرة، فطلب شركة تقدم خدمات تانتاريك ماساج في المنزل، وكان ما كان. ليكتشف بعد عدة أشهر، مصادفة، انتقال عدوى متلازمة النقص المناعي له، من تلك الفتاة التي قضى معها عدة ليالٍ.

(لعلك عزيزي القارئ ترى في ذلك تيمة تقليدية، للبطل الذي يسقط مريضا... لكنَّا هنا نقترب من مفهوم الضياع الإنساني، وسقوط الروح، وانتفاء الأمل خلف غياهب الغربة والوحدة. ولعل مرض سليم هو ما يدفعنا للمضي قدما، حتى نسبر أغوار تلك الحياة، ونيمم وجوهنا جهة الإنسان، فنرى بعين القلب ما يعانيه هؤلاء الضعفاء، الذين سعت أقدارهم بهم نحو الهاوية، وهم إليها سائرون بلا مقاومة).

ثم أضاف سليم:

- رجعت إلى بلدي، لا أدري ما أفعل.. خفت على أهلي، فادعيت المرض لفترة، ثم بدأت أختلق المشاكل مع زوجتي وأسرتي، حتى أجنبهم ما أنا فيه. وأخيرًا، صارحت أخي، وهو الذي طلب مني أن أطلق زوجتي وأغادر ولا اعود. هو لم يكن قاسيًا عليَّ، وإنما

كان عـادلًا مـع الجميـع. وهـا أنـا ذا منـذ سـنوات، أهيـم عـلى وجهـي في لنـدن، أخـاف أن اقـترب مـن النـاس، ولا أحتفـظ بصداقـات طويلـة، كـي لا أكـون ظـل هاويـة تدفـع آخـر نحـو حتفـه.

ثـم سـقط في نوبـة مـن البـكاء الحـاد وجاهـد ليكتـم نحيبـه، لكـن جينـي لمحتـه، فجـاءت مسرعـة تسـأل أحمـد:

- لماذا يبكي مرة أخرى؟

لم يسـتطيع أحمـد إخبارهـا بالأمـر، ولكـن أمـام اهتمامهـا الإنسـاني الطاغـي، أدركـت سـليم لحظـة مـن الشـجاعة، فرفـع إليهـا عينـين محمرتـين مـن البـكاء قائـلًا:

- أنا مصاب بالإيدز يا جيني

الغريب، أن جيني لم تأخذها المفاجأة، بل قالت لسليم بحدة:

- وليكـن.. مـا الداعـي لـكل هـذا البـكاء؟ ألسـت رجـلًا يسـتطيع تحمـل مرضـه؟ أم أنـك اعتـدت في الـشرق عـلى أن تجـد بجـوارك مـن يربـت عـلى ظهـرك دائـما؟!

كانـت حـدة جينـي المفاجئـة خـارج إطـار المنطـق. وكأن كلماتهـا كانـت قاطعـة، فتوقفـت دمـوع سـليم عـلى الفـور، قائـلًا:

- أعتذر عن تنغيص السهرة.

صاحت جيني:

- هـذا اعتـذار غـير مقبـول يـا سـيد سـليم؛ وليـس مـن حقـك أن تفعـل بنـا هـذا لأنـك تكرمـت ودفعـت لنـا ثمـن العشـاء. رد سـليم في حـزن:

– أي اعتـذار يـا جينـي أنـا عـلى اسـتعداد لتقديمـه، ليكـون مقبـولًا؟ أنـا حقًـا آسـف

فوجئا بجيني ترد في جزل:

– أن ترقـص معـي، ولا تخـاف. لـن تنقـل لي أي عـدوى، فالإيـدز لا ينتقـل باللمـس ولا بالطعـام يـا أحمـق. ثـم إنني قويـة تخافنـى الأمـراض

مـدت يدهـا بسرعـة، وأخـذت بيـد سـليم، وقبـل أن ينطـق بكلمـة كانـت قـد جذبتـه بشـدة إلى وسـط المسرح لترقـص معـه، وسـط دهشـة أحمـد، الـذي أسـقط في يـده!

يقـول الفيلسـوف البريطـاني هربـرت سـبنسر: «ربـما كان مـن الخطـأ أن نبحـث عـن السـعادة.. مـن الأفضـل أن نخلقهـا لأنفسـنا.. وأفضـل مـن كل شيء، أن نخلفهـا للآخريـن»

كان هـذا بالفعـل مـا قامـت بـه جينـي، حـين أخـذت بيـد سـليم ليرقصـا معًـا. هنـاك مـن يفكـر كثـيرًا قبـل أن يطبـق تلـك الحكمـة، ولكـن هنـاك آخريـن أنقيـاء يؤمنـون بحكمـة هربـرت سـبنسر،وقد تخطـوا مجـرد قناعـة العقـل ووصلـوا لمرحلـة إيـمان التطبيـق، فصـاروا يحيونهـا في كل تصرفاتهـم اليوميـة. هـؤلاء مـن لا تـدور بهـم الحيـاة في أفلاكهـا، بـل تـدور الحيـاة حولهـم وبهـم. في تلـك الليلـة، عـرف أحمـد في جينـي أحـد هـؤلاء الأقويـاء، الذيـن يسـعون لخلـق السـعادة لمـن حولهم، متغافليـن عـما في صدورهـم مـن حـزن مخفـي.

لمـا وضـع سـليم يـده في يـد جينـي، كانـت يـده ترتجـف.. كان كمـن هـو عـلى وشـك ارتـكاب جريمـة. ولكـن تلـك الابتسـامة التـي حولـت

وجه جيني إلى ملاك أسطوري يشع ضياءً، شجعته على ارتكاب تلك الجريمة.. ويالها من جريمة غيَّرت سليم، وللأبد.

حاول سليم أن يتكلم، لكن جيني وضعت إصبعها على شفتيها قائلة :

– شششششش.. فليسمح أميري بالهدوء والتركيز مع الموسيقى كي يتقن حركات الفالس. أغمض عينيك يا سليم، وفقط افتح قلبك للحظة من السعادة

سكن سليم تمامًا، وتحول الصخب الذي يعصف بداخله إلى هدوء، يزداد صفاؤه مع كل خطوة يخطوها على المسرح وهو ممسك بيد تلك الملائكية. كان أحمد مبهورًا، وهو يشاهد ما يحدث.. لكأن جيني استنسخت نسخة أخرى منها في دقائق معدودة، فلم يعد هناك سليم، وإنما كانت هناك نفس الروح التي وصفها سليم له وهو يشاهد جيني ترقص وحدها. كانت جيني تتحرك فوق المسرح في رقة الطيور، وسليم متجاوب معها كأنه يمارس هذه الرقصة طوال حياته!

إننا نولد مرة واحدة بغير إرادتنا، ولكنَّا، على يد أشخاص عابرين بحياتنا، نولد من جديد ولكن بإراداتنا، وعلى الشكل الذي نريده. هذا ما حدث في تلك الليلة، عندما انتهى الرقص وصمتت الموسيقى في رحلة الرجوع. اقتربت جيني من سليم، وهمست في أذنه قائلة:

– سليم سأخبرك سرًّا.. هنا، بالقرب من جرين ويتش،

حيث قصر الملكة الذي شيد في القرن السابع عشر، توجد المياة المسحورة.. نحن نتهادى فوقها الآن، فتمنى أمنية واقذفها إلى النهر

لم يفكر سليم، بل تحرك كالمسحور بكلمات جيني، واقترب من حافة المركب وهمس في كفه ببعض الكلمات، وقبض عليها يده اليمنى، وبكل قوته قذف بها إلى المياه!

أخذت جيني بيده إلى حيث تركا أحمد عند الطاولة. كان هناك شيء غريب في ملامحهما.. لقد جعلتهما ملامح الرضا متشابهين كتوأمين، أو هكذا رآهما أحمد. مضت الدقائق التالية في هدوء، والثلاثة قد سكنوا مستمتعين بالمشروبات وأجواء النهر حتى وصل إلى محطتها الأخيرة.

لما غادر الثلاثة سطح المركب إلى المرسى، كان سليم يبدو وكأنه غسلته المياه المسحورة بالفعل، فلم تفارق وجهه تلك الابتسامة المنفتحة على الدنيا، والتي تحمل الخير لمن حولها. وعندما وقف الثلاثة خارج المرسى، قالت جيني وهي تحمل الجيتار:

- الآن أترككما وأعود لبيتي...

قاطعها سليم قائلًا:

- هل أصبحنا أصدقاء يا جيني؟

ردت جيني بابتسامة رقيقة:

- بل نحن رفقاء رحلة النهر، وتلك حالة اسمى من الصداقة

أكمل سليم:

- هل تقبلين مني هدية صغيرة؟

جاوبته جيني: بالطبع

أضاف سليم: أنا سأترك لك شقتى المتواضعة

همت جيني بالرفض، ولكن سليم وضع يده على فمها قائلًا:

- تذكري المياه المسحورة، فهي من طلبت مني ذلك، وأخبرتني انك لن ترفضي

ضحكت جيني في مرح قائلة:

- أهلا بك يا صديقي في أرض الجنيات.. قبلت يا سليم، قبلت.

كانت جيني تنطبق عليها كلمات جبران خليل جبران: إن الكيميائي الذي يستطيع أن يستخلص من عناصر قلبه الرحمة والاحترام واللهفة والصبر والندم والدهشة والعفو، ويدمج هذه العناصر في عنصر واحد، يمكن أن يخترع هذه الذرة التي تسمى الحب!

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن

الاختفاء

غادر ثلاثتهم المرسى، متجهين مشيًا إلى حديقة بارني سباين، على شاطئ النهر بعد المتحف القومي، لإحضار أغراض جيني. كان الجو باردًا، لكن دفء الصداقة التي توطدت خلال رحلة النهر لم تكن برودة الطقس لتقدر أن تُفسدها. حين وصلوا إلى الحديقة، كان في استقبالهم رفقاء جيني، وهم ثلاثة مشردين آخرين يتخذون من الحديقة سكنًا. وكانوا قد عقدوا اتفاقًا على تقسيم الوقت بالتناوب، كي يبقى أحدهم باستمرار بجوار الأغراض حتى يرجع الآخرين من سعيهم اليومي لاستجداء السماء بعضًا من رزق، على يد أحد العابرين أو الغرباء الذين احتضنتهم ضفة النهر. وكانت وسائلهم في ذلك – وإن سعت إلى ذات الهدف – جد مختلفة.. فمنها الطريف، ومنها القاسي.. ولكن قسوة الحياة علمتهم أن كل شيء سيمضي بعد قليل، ويصبح ذكرى.

جيني كانت تعزف على الجيتار وتغني بشكل احترافي لا ينسجم

مع تلك الحياة التي تلفها البرودة والوحدة والحاجة. رفيقها الأول يدعى مارك، وكان مهرجًا يومًا ما، لكنه ذو قلة من حظ، وكان الفشل في عمله بالسيرك نصيبه، وغادرته صديقته مفضلة عليه رفيقة من ذات جنسها، فانتهى به الأمر أن أقام لنفسه عرضًا خاصًا على شاطئ النهر، لا يبعد سوى أمتار قليلة عن عين لندن، فيقدم ألعابه وأكروباته على الزوار في مقابل ما يجودون به من مبالغ ضئيلة، بالكاد تكفي طعامه. أما ثالثهم، فهو توني الذي لم يمنحه القدر الكثير من مواهب، فراح يحتال لكسب قوت يومه مستخدمًا صندوقًا مفتوحًا من الأمام والأسفل، يضعه فوق طاولة ذات سطح به فتحة أصغر من قاعدة الصندوق، ويخفيها الصندوق.. ترتيب لا يستطيع الناظر أن يرى فيه الفتحة. وهو يغطي طاولته بمفرش أنيق، عليه رسومات لكرتون الأطفال، ويرتدي ملابس حيوان ما، ويقلد صوته، ويجلس طوال اليوم على مقربة من مارك داخل الصندوق، بلا حراك في هذا المحبس، يلاعب الأطفال، فيمنحه آباؤهم بعض النقود. ويالها من طريقة قاسية لاكتساب عدة جنيهات لا تتجاوز العشرة يوميًا، تكاد تكفيه فقط لشراء ساندوتش من صب واي مع الكولا والبطاطس.

أما رابع ذلك التجمع العفوي، والذي دأب يصارع الحياة، فيغلبها تارة ويسقط تحت حوافرها تارة أخرى، ولكن دون أن يستسلم.. ذلك هو جاك. جاك عازف أبدع آلته الخاصة، واحترف العزف عليها. كانت آلة بدائية، مجرد وعاء طعام نحاسي، كبير كالقصعة. قد تبدو للوهلة الأولى آلة عقيمة، لا تلد لحنًا،

ولا تملك إمتاعًا.. لكنه أدرك درجة من الاحترافية في إنطاقها، مكنته أن يعزف عليها أشهر المعزوفات العالمية. لقد اعتاد الوقوف والعزف ليلًا في منطقة سوهو - تذكرون بالطبع تلك المغامرة الأليمة التي مر بها أحمد في أول يوم، كانت في تلك المنطقة - كان هذا يناسب الجميع. ذلك أن جاك ينتظر بجوار أغراضهم صباحًا، في حين هم حولها ليلًا. وهكذا تمر بهم الحياة ويستمر هذا الوضع لسنوات. إنهم في متاهتهم ضائعون بلا مستقبل ولا هدف ولا أهل، وصار وطنهم هو تلك الحديقة، وأهلهم هم سكانها من الطيور، وسنجاب صغير يبدو أنه ضائع مثلهم كان موجودًا هناك، قد اعتادهم وألِفُوه، ولا يعرف له وطنًا ولا أهلا غيرهم، وصار يخرج من مخبأه عندما يسمع صفير أحدهم مناديًا، كي يمنحه بعض حبات البندق. لقد منحوه اسمًا.. "بوني".. فهو صغير الحجم شديد الهزال.

جمعت جيني أغراضها، وودعت رفاقها.. ثم إنها لما همت بمغادرة الحديقة مع أحمد وسليم، نادت على بوني بصفارة قصيرة، فخرج من مخبئه ووقف أمامها على قائميه الخلفيين، وحرك ذيله وكأنه يعلم أنها ستمنحه البندق. ولم تخيب جيني ظنه، فأخرجت من حقيبتها بعض البندق الذي اشترته من ذلك الكشك الصغير عند بداية الكوبري، أعلى السلالم المؤدية لمرسى المطعم العائم، بثلاث جنيهات. ما زال أحمد يذكر جيدًا وهم مغادرون، حين طلبت جيني التوقف عنده خصيصًا لهذا الغرض.. ويذكر أنها ألقت تحية حارة على البائع الشاب الأسيوي الواقف في هذا

الكشك، وبدا من مقابلته لها أنهما صديقان منذ زمن.

تعاون أحمد وسليم في حمل الأغراض، والتي لم تكن بأي حال كثيرة.. حقيبة ظهر كبيرة نوعًا ما ماركة أديداس، وكيس للنوم، والجيتار. أصرت جيني أن تشاركهما حملها، فأعطياها الجيتار، فضحكت واستسلمت لقرارهما. كانت تنوي الذهاب مشيًا، ولكن سليم ضحك قائلًا:

- يا عزيزتي نحن متوجهون إلى ضاحية هتفيلد

نسيت أن أخبركم أن شقة سليم تقع في شارع كروس بروك، وسط المساحات الخضراء في ضاحية هتفيلد. لم يكن أحمد ملمًا بلندن بالشكل الذي يمكنه من معرفة موقع تلك الضاحية، ولكن سليم نظر إليه قائلًا:

- لا تقلق يا صديقي، إنها تبعد فقط ٢٠ دقيقة من محطة مترو كينجز كروس.

مشوا معا في هدوء وسكينة، وبعد فترة أصرت جيني على مبادلة سليم، فأخذت منه حقيبة الظهر وأعطته الجيتار، ثم أكملوا سيرهم إلى محطة مترو ويست منيستر. ومن هناك، استقلوا القطار المتجه إلى كنجز كروس، ثم القطار المتجه إلى هتفيلد، محطتهم الأخيرة.

وصلوا إلى حيث بيت سليم قرب الثانية عشر ليلًا، وأسرع سليم فجمع أغراضه الشخصية للحاق بالقطار الأخير في هذه الضاحية البعيدة عن قلب لندن. توجه إلى جيني قائلًا:

- جيني، أرحب بك في بيتي المتواضع، والذي بات منذ هذه اللحظة بيتك.

ناولها مفتاح الشقة، وطلب رقم جوالها حتى يطمئن عليها هو وأحمد لاحقًا. سجل أحمد الرقم على جواله ،وصافح الاثنان صديقتهما، وأسرعا إلى المحطة.

كان الوقت قد تأخر لمَّا وصلا إلى قلب لندن. عرض أحمد على سليم استضافته في غرفته المتواضعة، وما كان سليم ليرفض العرض في هذا الوقت المتأخر. ربما ليس فقط لتأخر الوقت، ولكن بدا أن روحه تتوق للانتماء، وللمرة الأولى منذ سنوات لا يرغب في أن يضاجع الوحدة، ويستولدها الحسرة والندامة والألم.

توجه الاثنان إلى الفندق الذي يسكنه أحمد. كانت الشوارع خالية تمامًا من المارة، وقد أوشكت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل، وقد تجمدت أطرافهما. لم يفعلا أي شيء، ولا حتى أبدلا ثيابهما، ولكن ارتميا في أقرب مكان واستسلما لنوم عميق.

في الصباح، استيقظ أحمد على الصوت المرتفع لمنبه الجوال، والذي وضعه بعيدًا حتى لا يقوم بإيقافه وإكمال نومه، كما اعتاد حين يشعر بالإنهاك. نظر حوله، فلم يجد سليم في الغرفة. قام مسرعًا ومتعجبًا، ولكن وقعت عينه على هاتف سليم الجوال على الطاولة الصغيرة أمام التلفزيون القديم، فتنهد مرتاحًا، فربما هو فقط في الحمَّام. لكن عاد ففكر هل كان سليم في عجلة لدرجة أنسته أن يلتقط جواله؟!.

على عجل، غيَّر أحمد ملابسه، وتهيأ للذهاب إلى عمله. لم يكن لديه وقت للبحث عن سليم، والأخير لم يأخذ هاتفه كي يمكنه

الاتصال به أو إرسال رسالة نصية، فترك له مفتاح الغرفة ومعه رسالة مع سميرة مديرة الفندق. قابلته هي بابتسامة مرحبة وألقت عليه تحية الصباح، ولم تعترض على استضافته لرفيقه في الحجرة. وضعت المفتاح والرسالة في درج أمامها، وعادت تمسك بكوب الشاي، تحتضنه بكفيها لتستدفئ به، فقد ترك عليها البرد شحوبًا باديًا.

وفي الخامسة مساءً، كما ظهر على الساعة الموضوعة في ردهة الفندق، عاد أحمد وتوجه إلى سميرة ليسألها إن كان سليم قد عاد، أم إن مفتاح الحجرة لا زال عندها. قبل أن يتكلم، حيته السيدة وأخرجت له من الدرج المفتاح والرسالة، فوجم وقد أدرك أن سليم لم يرجع بعد!

كان هاتف سليم ما يزال في نفس موضعه حيث تركه صباحًا. جلس على الكرسي أمامه، وأخذ ينظر إليه يفكر في صاحبه، وأين عساه قد ذهب! مرت دقائق، ثم قرر أحمد أن لا فائدة من جلوسه هكذا، فغيَّر ملابسه، واستلقى على السرير طالبًا بعض الراحة لجسده المنهك. أخذته غفوة، أفاق منها على رنين الجوال الخاص بسليم. فكر أحمد أن المتصل ربما يكون سليم يحاول معرفة مكان جواله، فالتقط الجوال بسرعة، ورد في حذر:

- أهلًا

ولكنه لم يكن سليم، بل كريم نادل تلك القهوة التي تعرف فيها بسليم للمرة الأولى، بعد حادثة التصادم. أخبره أحمد أن سليم

غير موجود حاليًا، وأنه قد نسي جواله لديه. طلب كريم منه أن يخبر سليم أنه استلم الجهاز، ورجاه أن يبلغه جزيل شكره لشرائه جهاز تقويم العظام لابنه المصاب. سكت أحمد، ففهم كريم أنه لا يدري عما يتكلم، فشرح له الأمر، أن سليم قد أتى إليه في القهوة قبل أن يصل، وترك له الجهاز وذهب دون حتى أن ينتظر وصوله وشكره. أغلق أحمد الخط، وابتسم في نفسه معجبًا بصاحبه... كم أنت رائع يا سليم، وكم أنا محظوظ بصداقتك!

زال قلق أحمد، بعد أن عرف سبب النزول المبكر لسليم، فعاد يستسلم لغفوته، حتى مرت حوالي الساعة، حين سمع دقات خفيفة على باب الغرفة، فقام مسرعًا يفتح الباب، وكان - كما توقع- سليم هو الطارق وهو يحمل بعض الطعام.حمل أحمد عن سليم الأغراض سائلًا:

- أين كنت يا سليم طوال اليوم؟

اعتذر سليم، معللًا غيابه بأنه اضطر للخروج صباحًا لقضاء بعض الأعمال الهامة، وفضل عدم إيقاظه.

لم يكن أحمد ليخبر سليم بأمر مكالمة كريم، عندما لاحظ أن سليم لم يحاول إخباره. تمنى ألا يلاحظ في مكالمات جواله أن كريم قد اتصل وتم الرد عليه. كان سليم قد أتى معه بالكبسة مع اللحم، ففتح أحمد فمه مشدوها، وقال لسليم ضاحكًا:

- أنت مثل الجني في فيلم لص بغداد يا سليم! أين عثرت على كبسة هنا في قلب لندن؟!

ابتسم سليم قائلًا بحركة مسرحية:

- في خدمتك سيدي.

سأله سليم:

- هل اتصلت اليوم بجيني للاطمئنان عليها؟

رد أحمد بالنفي معللًا ذلك بقوله:

- لا أعتقد انه من الصواب اختراق حدودها بشكل يزعجها، خاصة بعد أن وضعتها في هذا المأزق بالأمس.

رد سليم مستغربًا:

- مأزق!.. أي مأزق؟ هل تقصد أنك فعلت ذلك، أم تقصدني أنا بكلمة "وضعتها"؟.. أخبرني بالله عليك!

تنحنح أحمد وقالفي تردد:

- لم يحدث شيء يا سليم، لكنني أفكر كيف ستدفع جيني إيجار الشقة.. إن شقة كهذه إيجارها ربما ستمائة جنيه إسترليني أو تزيد، وجيني كل ما تجنيه من الشحاذة في المترو يكاد يسد احتياجتها اليومية. ولا تقل لي إنك ستدفع عنها، فلا أعتقد أن جيني ستقبل منك مساعدة بهذا الخصوص. أليس هذا مأزقًا؟!

ابتسم سليم قائلًا:

- بالطبع هي لن تقبل. لذلك، دبرت لها عملًا، كمدربة مع الفرقة الغنائية الخاصة بالأطفال المرضى، بأحد دور الرعاية، وبراتب شهري قدره ألف وخمسمائة جنيه إسترليني.

بدت علامات الدهشة على وجه أحمد وهو يقول...

- ألهذا اختفيت طوال اليوم؟! أنت رائع يا سليم! لنتصل بجيني ونخبرها

وتناول أحمد الجوال وطلب جيني أكثر من مرة، لكنها لم ترد أبدًا. حاول سليم أيضا من هاتفه، ولكن دون جدوى.

- يجب أن نذهب للاطمئنان عليها..

قال سليم، لكن أحمد لم يتحمس لتلك الفكرة..

- لعلها نائمة، أو لا تريد أن تجيب، دعنا لا نتعجل

لكن سليم أخبره أن موعدها مع مدير الدار الخاصة برعاية الأطفال غدًا صباحًا، وهنا يقدسون المواعيد، ولو لم تحضر الموعد فستضيع عليها فرصة العمل، لذا يتوجب الاتصال بها بأية طريقة.

- حسنًا.. فلنذهب إليها الآن

وضعا الطعام جانبًا، ونزلا بسرعة. عند المترو، لم يجداها في مكانها المعتاد، فأكملا الطريق إلى شقة سليم في حي هتفيلد. لم تكن جيني في المنزل. وجدا خطابًا من جيني، تركته في صندوق الخطابات، تشكرهما فيه على ما فعلاه معها، وتعتذر عن الإقامة في الشقة، وتطلب منهما عدم البحث عنها. وتركت مع الخطاب مفتاح الشقة.

نظر أحمد إلى سليم مذهولًا...

- أعتقد أنك فعلت ما عليك وأكثر، ولا داعى للذهاب أبعد من ذلك، فقد اختارت جيني قدرها

لكـن سـليم أصر عـلى البحـث عنهـا، مخـبرا أحمـد وعلامـات الأسـى عـلى وجهـه...

– هـل تـدري مـاذا حـدث بالأمـس، عندمـا جذبـت جينـي يـدي للرقـص معًـا عـلى مـسرح الباخـرة؟

قبل أن يجب أحمد أكمل سليم:

– لقـد هانـت عنـدي الدنيـا، وأنـا أجـد مـن يتقبلنـي كـما أنـا، ودون أن أكـون مضطـرًا للاختبـاء مـن نفسي. لقـد أيقظتنـي جينـي ببراءتهـا وعفويتها هـذه، مـن ضيـاع كنـت أفرضـه عـلى نفسـى لسـنوات. لقـد رفضنـي أخـي وجعلنـي أطلـق زوجتـي وأهجـر وطنـي قسـرًا، وقبلتنـي جينـي!.. والآن، جـاء عـليّ الـدور لأرد لهـا مـا فعلتـه معـي. هـل تـدري مـا طلبتـه مـن الميـاه المسـحورة، والتـي تؤمـن بهـا جينـي ولا أفعل أنـا؟ لقد طلبـت شـيئًا واحدًا، وقطعـت عهـدًا واحـدًا.. لقـد طلبـت مـن الله أن يخرجنـي مـن هـوة الضياع التـي سـقطت فيهـا، وعاهدتـه أن أقـف بجـوار مـن يمد يـده لي لينقـذني من المصـير المريـر.. لـن أخلـف الله مـا وعدتـه يـا أحمـد

انحـدرت دمعتـان عـلى وجـه سـليم، وتمنـى أحمـد بداخلـه أن يجـدا جينـي، وأن يسـتطيع أن يـؤازر سـليم. نظـر إلى صديقـه قائـلًا في حمـاس:

– أنـا لا أعـرف سر اختفـاء جينـي؛ ولكـن عـلى كل، لنبـدأ البحـث فـورًا، فهـي بالفعـل تسـتحق ذلـك

وتحـرك الاثنـان عائـدان إلى محطـة مـترو ويسـت منيسـتر، حيـث اعتـادت جينـي الوقـوف والعـزف، لكـن لا زال جيتـار جينـي غائبـا، لا يصـدح صوتـه في المـكان. نظـر سـليم لأحمـد قائـلًا:

- هل تشعر بشيء مختلف؟

- أعتقد أنه الهدوء

- بل إنها الروح التي كانت تبثها جيني في هذا المكان. جيني لم تكن فقط تعزف على جيتار، جيني كانت تعزف على أوتار قلوب المارين من هنا، لذلك غابت الروح اليوم

قالها وعلامات الأسى على وجهه، ولأول مرة يلاحظ أحمد أن كلمات سليم تحمل ما هو أكثر من التعاطف.. لقد كانت دفء مشاعر خاصة تجاه جيني. لم يشأ أحمد أن يفسد تلك اللحظة، فاختار الصمت، حتى خرجا من المحطة.

- سليم، أعتقد أننا يمكن أن نسأل بائع الكشك الصغير عند سلالم المرسى، لأن جيني بالأمس كانت تصافحه بحرارة، فأعتقد أن بينهما صداقة قوية قد تجعلها تلجأ إليه. إنه ذلك البائع الشاب الأسيوي، أتذكره؟

بالفعل، ذهبا وألقيا التحية على الشاب، وسألاه عن جيني. لكنه أخبرهما أنه لم يرها طوال اليوم، على غير العادة، فهي لابد تشتري ثمرات البندق منه كل يوم لبوني. سأله سليم إن كان يعرف أماكن أخرى تعزف فيها جيني، فأجابه بأن جيني لا تعزف سوى في هذه المحطة. أسقط في أيديهما، لكن أحمد خطرت له فكرة..

- تعالى يا سليم، هيا بنا

نزل السلالم قفزًا في اتجاه المرسى، ولما وصل عند شباك بيع التذاكر، كانت البائعة العجوز التي قابلته بالأمس هناك. ألقى أحمد عليها التحية، وجاوبته هي بنفس روح اليوم السابق، فابتسم لها قائلًا:

- أريد منك خدمة سيدتي

قالت: اسمي ماري، أطلب ما تشاء.. لكن أين جيني؟ لماذا هي ليست معكما اليوم؟

اندهش أحمد من كلماتها، ولكن ماري العجوز قالت:

- لا تعجب هكذا.. إنك غريب عن المنطقة، ولهذا لا تعرف أن الجميع هنا يعرفون جيني، فهي لا تتأخر عن الوقوف بجانب الجميع. لا أنسى اليوم الذي أصبت فيه بأزمة قلبية، ونقلت للمستشفى، هناك على الجهة الأخرى من الكوبري

أشارت بيدها ناحية مكان قريب من عين لندن، وشردت بذكرياتها للحظة، ثم ابتسمت ابتسامة ممتنة وهي تقول:

- كانت جيني هي من ترعاني. هل تعلم أن جيني كانت تعمل كممرضة منذ سنوات، قبل أن تتغير حياتها؟

لا لم يتعجب أحمد. لم يعد يتعجب، فقد وطَّن نفسه على مفاجآت لا تحصى من سليم وجيني.

سألها أحمد:

- أننا لم نجدها اليوم في محطة المترو، فهل تعرفين يا سيدتي أين يمكن أن تكون؟

أخبرته في بساطة:

- إنها تقيم في حديقة بارني سبين، يمكنك أن تجدها هناك

شكرها أحمد، ورجع إلى سليم قائلًا:

– دعنا نركز قليلًا يا سليم.. من المؤكد أن جيني عادت لنفس الحديقة التي كانت تسكنها

خبط سليم جبهته بكف يده قائلًا:

– كيف فاتنا ذلك؟!.. هيا بنا

لما وصلا الحديقة، لم تكن جيني هناك، ولم يكن هناك سوى توني زميلها فقط. حياه أحمد وسأله عن جيني، ففتح عيناه في ريبة وهو يرد السؤال بسؤال:

– ألم ترحل معكما بالأمس؟.. ماذا حدث لها؟

أشار له سليم أن يهدأ، وأخبره باختصار عن رحيلها عن الشقة وتركها للرسالة. سارعا بتركه قبل أن يشتبك معهما أكثر، وعادا إلى ماري، وأخبرها أحمد بما حدث. فكرت السيدة قليلًا وهي تتأملهما، قد أخذت قرارها بالاطمئنان لهما، وأخبرتهما أن جيني قد تكون في بيت المشردين الذي تقصده شتاءً. أعطتهما العنوان، وكان النزل يقع على مقربة من ويست منيستر في شارع ميلفرتون، ويدعى جيت واي هاوس. أوقف سليم تاكسي وتوجها به للنزل، ولكن بعد دقائق خرجا من النزل وعلى وجهيهما علامات الفشل، فلم تكن جيني هناك أيضًا.

أثناء عودتهما لمحطة المترو، كان الحزن قد ترك أثره على وجه سليم، وكأنه قد فقد عزيزًا. ولأول مرة، يشعر أحمد بالإشفاق على سليم، بعد أن شاهد ولادة الأمل في عينيه بالأمس. عادا للفندق، واتصل سليم بمدير دار الرعاية، ورجاه أن يؤجل الموعد الخاص بالمقابلة

الشخصية لجيني. وكان المدير كريما، فقد قبل طلبه دون أن يسأله عن السبب. وطوال اليومين التاليين، ظل سليم وأحمد يبحثان في جميع الحدائق المحيطة بمحطة ويست منيستر، وعلى شاطئ النهر، وداخل جميع محطات المترو التي يقف بداخلها العازفون. وبعد ثلاثة أيام من البحث المضني، كان اليأس قد تسرب تمامًا لسليم وتمكَّن منه، وراحت ملامح وجهه تعود سيرتها الأولى، يوم شاهده أحمد أول مرة في بقالة المصطفى.

أشفق أحمد على سليم من موت الحلم في قلبه، لكنه اضطر لتركه والذهاب لعمله في صباح اليوم التالي. وأثناء استراحة الغداء، ذهب ليصلي الظهر في المسجد الصغير الموجود في قبو المبنى - نسيت أن أخبركم أن الشركة التي يعمل بها أحمد مزودة بمسجد صغير في القبو وصالة طعام - تذكَّر وهو ساجد أن جيني أخبرته أنها تسكن في مطار هيثرو أحيانًا، وخاصة في الشتاء. انتهى من الصلاة، واتصل على سليم:

- تجهز يا سليم، هناك مكان جديد يمكننا البحث فيه عن جيني

وخلال عشر دقائق، كانا يستقلان القطار المتجه لمطار هيثرو. ظل الاثنان يبحثان في جميع الصالات، ولأكثر من ثلاث ساعات بدون يأس. وفي الصالة رقم خمسة، وهناك بجوار أكشاك بيع تذاكر المترو والباصات، وعلى الكراسي المعدنية المتصلة، كانت جيني تستلقي نائمة، وقد غابت عن الدنيا.

همس سليم في أذن أحمد:

– دعها نائمة ولنجلس بجوارها في هدوء. لعلها متعبة وبالكاد نامت

ابتسم أحمد في خبث، وهو يتحسس أذنه قائلًا:

– معقول جدًا.

جلس الاثنان بالقرب منها في هدوء. مرت الساعة تقزيبًا، وأحمد يراقب عينَي سليم اللتين لا تكادان تطرفان، ولم تفارقا وجه جيني للحظة. فتحت جيني عينيها على وجه سليم، ثم إنها أغمضتهما مرة أخرى وهي تظن أنها ما زالت تحلم وتمتمت:

– كم أنت طيب يا سليم!

لكنها سرعان ما فتحتهما مرة أخرى، لتقع على وجه سليم، وابتسامة ملؤها العطف والحنو تعلو وجهه. نهضت فجأة وهي تفرك عينيها بيديها متسائلة:

– هل هذا حلم؟!

لكن سليم أمسك يدها قائلًا:

– لقد أقلقتني كثيرا يا جيني. لماذا غادرتِ الشقة؟

أدركت جيني أن غادرت وادي الأحلام، وأن ما أمامها هو بالفعل وجه سليم. أفاقت وهي تبتسم متعجبة:

– كيف وصلتما لمكاني هنا؟!

رد أحمد: بحثنا عنك في كل مكان، لمدة ثلاثة أيام أيتها المختفية

علت الدهشة وجه جيني متسائلة:

– لماذا كل هذا الجهد؟!

ابتسم سليم في حنو مجيبًا:

- لأنك رفيقة النهر، وساحرتي، وملاكي المنقذ.

لم يظهر في تلك اللحظة على جيني أي أثر للمفاجأة. كانت تشعر بما اعتراه وكان ذلك هو السبب في فرارها منهما. بدت كأنها تحمل ذات المشاعر تجاه سليم، بل لعلها كانت تحلم به الآن، كما بدا حين استيقظت من نومها. ابتسمت قائلة:

- كم أنت طيب القلب يا سليم.. لكنني لا أصلح لمثل تلك المشاعر البادية في عينيك، فأنا قد انتهيت منذ زمن ليس بالقريب

ابتسم سليم قائلًا:

- دعينا من هذا الحديث الآن، واسمحي لي أن أدعوكما على الغداء

صاح أحمد:

- لنذهب الآن، فأنا أكاد أموت جوعا

قالها، ولم ينتظر ردًا، بل حمل حقيبة جيني دون أن يعطيها فرصة للرفض، وأعطاها ظهره يسبقهما. ابتسمت جيني وناداته:

- هيه، انتظر.. أنتما فريق إذًا.. اثنان ضد واحد

ضحكت وهي تشير بيديها

- حسنًا حسنًا.. لقد استسلمت.. لن أرفض العرض، هيا بنا، أنا أيضا جائعة في الحقيقة.

خرج الثلاثة من المطار، يحمل أحمد حقيبة جيني، ويحمل سليم الجيتار على كتفه الأيمن، بينما وتتأبط جيني ذراعه الأيسر.

❋❋❋

الفصل التاسع

مغامرة فنية في ماربل آرتش

استقل الثلاثة المصعد الكبير، الذي سوف يأخذهم من أماكن الانتظار بالمطار إلى حيث توجد بوابات المترو. وعندما وقفوا على رصيف محطة المترو في الصالة رقم خمسة لمطار هيثرو، نظرت جيني إلى كليهما قائلة:

- لم تجيبا سؤالي: كيف عرفتما بمكاني؟

قبل أن يجيبها أحمد، نظر نحوه سليم، فسكت وترك المجال لسليم ليجيب..

- جيني، هل تذكرين المياه المسحورة؟ تلك التي كنت قد حدثتني عنها أثناء العشاء العائم عند جرين ويتش، تلك المياه هي التي وشت بمكانك أيتها الملائكية الساحرة.

سقطت جيني في نوبة من الضحك، لدرجة أنها استندت على كتف سليم. ثم تمالكت نفسها وهي ترد:

- أيها المخادع الشرير، أنت عبقري في اختراع طرق للهرب دوما. أنا أحب هذا، كونه يفتح آفاقًا للعقل أن يبدع.. يالك من رائع يا سليم.

- بل لعلي أخبرك الحقيقة.. أحمد هو حقًا من توقع أنك هنا، وقام أيضًا بتأجيل سفره من أجل أن يبقى بجوارنا.

نظرت جيني إلى أحمد نظرة امتنان ومحبة...

- أحمد، أنت بالفعل صديق يصعب وجوده في هذه الأيام. أعتز بصداقتك التي منحتني الدفء في هذا الطقس.

رد أحمد في عطف:

- بل أنتِ نقية القلب يا جيني، وقلبك الطيب هذا قد شاء الله أن يوجد بجواره من يرعاه وقت محنته، فهكذا ترفق بنا السماء، فتحتضننا بعبور أحدهم ليمسح بكف العطف والرحمة موضع الألم

كان القطار المتجه لوسط لندن على وشك القدوم، واللوحة الرقمية المعلقة فوقهم مباشرة تعلن وصوله إلى المحطة بعد دقيقتين، وأحمد يذكرها بأنها من أخبرته عن هذا المكان. تذكرت جيني وضحكت من نفسها وضربت كفًا بكف، ثم نظرت إليهما سائلة:

- إلى أين نتجه إذن؟

رد سليم:

- دعونا نتجه لوسط لندن، حيث نضع أغراضك في غرفة أحمد، ثم نتناول الغداء، وبعد ذلك أدعوكما للتسكع في طرقات لندن على طريقتي

لم تعارض جيني الاقتراح. جلس الثلاثة متجاورين، على تلك المقاعد القماشية المريحة في القطار المتجه إلى قلب لندن، وتحرك القطار الذي لم يكن مزدحمًا في ذلك الوقت.

حدث أمر لم يتوقعه أحمد، عندما توقف القطار في محطة نورث فيلدز. صعدت إلى القطار امرأة عجوز بيضاء، يقودها كلب ضخم، وجلست أمام أحمد مباشرة، وجلس كلبها على الأرض أمامه. لم يكن أحمد على علاقة جيدة مع الكلاب، وخاصة مع تلك الأحجام التي تبدو كوحوش خرجت من الأدغال للتو، مما جعل رحلة القطار بالنسبة له أشبه بدخول بيت الرعب في دريم بارك، على عكس سليم وجيني، اللذين ظلا يراقبانه وهما يبتسمان، وبين الحين والآخر يداعبان الكلب، مما يجعل أحمد يجلس مضطربًا، وجعل العجوز تبتسم، وإن حرصت على إبقاء الكلب دائما بعيدًا عن قدم أحمد، لعدم انتهاك خصوصيته.

لما وصل القطار محطة توتنهام كورت، كانت الأمطار قد بدأت في الهطول بشدة، فجروا بخطىً مسرعة نحو الفندق، حيث سيتركون الأغراض الخاصة بجيني. ولم يكن الثلاثة - وعلى غير العادة- قد تهيئوا لمواجهة تلك الأمطار. وعندما وصلوا الفندق، استأذن أحمد وسليم في الصعود لتغيير ملابسهما المبتلة، وأخذت سميرة جيني إلى غرفة العاملين لتغيِّر ملابسها هي الأخرى، ثم انتظرتهما جيني بغرفة الاستقبال خلف باب الفندق.

اشتدت الأمطار والرياح بالخارج، لتجبر سميرة على البقاء لبعض الوقت. كانت سميرة قد أنهت للتو نوبتها في العمل، وهمَّت

بالمغادرة إلى بيتها، لكنها جلست تنتظر هدوء الأمطار وسكون الرياح. كانت الفرصة سانحة لتبادل الحديث، فبادرت سميرة قائلة:

– ألستِ الفتاة التي تعزف في محطة المترو عند ساعة بيج بين؟

أومأت جيني برأسها وهي تبتسم في رقة.

أومأت سميرة علامة على إعجابها بها وقالت:

– بالرغم من هالة الحزن التي تلف موقعك دوما هناك، إلا أنك رائعة العزف رقيقة المشاعر، تحسنين اختيار ما تعزفينه، فيبدو ممتزجًا مع صوتك في انسجام تام. أحب عزفك، وكثيرًا ما أتوقف لمشاهدتك والاستمتاع بصوتك الجميل وعزفك الرائع على الجيتار.

ابتسمت جيني شاكرة، ثم بدأ الحديث بين يطول بين السيدتين.

كانت سميرة شابة في منتصف الثلاثينيات من عمرها، منحتها من الجمال لم تكن ليمنحها آفاقًا بعيدة في لندن، التي دأبت تتغذى على جمال النساء، متكئة على أموال الأغنياء.كانت قصيرة، ممتلئة بعض الشيء، ويبدو أنها اكتسب هذا الوزن من جلستها خلف مكتبها في هذا الفندق لفترة طويلة. اعتادت أن ترتدي ملابس بسيطة، ولا يذكر أحمد انه أمسك بها مرة متلبسة بجريمة الابتسامة الحقيقية الصافية، فابتسامتها دائما مرسومة كجزء من وظيفتها، ولا روح فيها. لقد طغت عليها آفات المدينة.. جمودها وضبابها وبرودتها، حتى وشت ملامحها بما تكابده من صعوبات في لندن حتى تستطيع الاستمرار ولا تسقط، وهي جد مدركة أن سقوطها يعني النهاية الحتمية، فلن يلتفت لها أحد، فالكل في ذلك سواء،

وكل يوم هو معركة جديدة ورهان مقبوضة وأهل على بعد آلاف الأميال ينتظرون بعض جنيهات ليطعموا الصغار، وإلا سيكونون طعام الأغنياء على مائدة الحياة.

كان الحديث ما يزال دائرًا بين الفتاتين حين وصل أحمد الى حيث تجلسان

– لقد كلفتني الإقامة هنا في لندن بصورة قانونية ثمنًا قاسيا... كلفتني أسرتي

كانت هذه سميرة تخبر جيني. اتخذ موقعه قريبًا من جيني على الأريكة، وفي مواجهة سميرة. كانت الغرفة، التي تقع على يسار باب الفندق، ضيقة، وقد ترك بعض النزلاء حقائبهم بها بعد مغادرة غرفهم، وذلك لحين عودتهم من جولاتهم الأخيرة مودعين شوارع لندن، قبل الذهاب إلى المطار. بالرغم من أن إدارة الفندق كانت تحظر ذلك، وتنفي مسؤوليتها عن الحقائب، لكن اعتادت سميرة أن تغض الطرف عن هذا القرار، كلمحة كرم تحمل دفء مشاعر عابرة لهؤلاء الزوار، فيكون المقابل ابتسامة شكر ترمم روح تلك المرأة، وتمنحها بعض أمل لغد آخر قد يكون أفضل من سابقه.

سألها في فضول:

– كيف ذلك؟

ردت سميرة بابتسامة، يظن من يراها أنها بذلت مجهودًا أكبر من رافعي الأثقال حتى ترسمها على شفتيها. كانت خافتة،

كأنها الأخيرة التي كانت تحتفظ بها في خزانة الروح للمستقبل، وها هي تجود بها الآن، وكأنها سلبت منها غصبًا..

- أنا بخير.. أرجو أن تكون مرتاحًا في الإقامة هنا، فالفندق قديم بعض الشيء، وقد اعتاد الزوار على التذمر دون أن يتذكر أحدهم المبلغ الضئيل الذي يدفعه مقابل السكن في قلب العاصمة، وبالقرب من مركز الأعمال والبيكاديلي.

فهم أحمد أنها لا تريد الحكي، فلم يلح عليها. قال:

- أعتقد أني بحاجة لتغيير الغرفة بأخرى.

-هل هناك مشاكل محددة بالغرفة؟ يمكننا التعامل معها دون الحاجة للانتقال سيد أحمد

- بالغرفة ذاتها، لا. لكن المشكلة تقبع هناك خلف الجدران الخشبية، والتي ما برحت تنقل كل ما يدور خلفها وتشي بأسرار ساكنيها. مشكلتي الحقيقية هي بالغرفة المجاورة.

سكت لحظات وهو ينظر إلى الأرض، وقد احمر وجهه، ولا يعرف كيف سيخبرها بذلك الأمر الذي ينغص ليله. شاهدت سميرة حمرة وجهه، فأدركت الأمر، فقالت معقبة دون أن يظهر على وجهها أي علامات للتأثر...

- أنت تسكن بجوار ستيف وجاك بالغرفة سبعة وعشرين... صحيح؟

- لا أعرف من هما، ولكن بالفعل هما رجلان

لحظات، استعادت خلالها ذاكرة سميرة ساكني الفندق، قبل أن تقول:

– آه أعتقد أنني قد عرفت سبب رغبتك في تغيير الغرفة. ولكن هذه هي لندن، وتلك العلاقات ستقابلها في كل مكان، لذا أنصحك أن تعتاد مثل تلك الأمور التي تخالف حقيبة المعارف والتقاليد والقيم التي اصطحبتها معك من بلادك، ولا زلت تحملها أينما ارتحلت كظلك. كنت مثلك في أول يوم سكنت فيه لندن

تنهدت مضيفة:

– كان ذلك من أكثر من ستة عشر عامًا، ولكني اعتدت مثل تلك الأمور بعد فترة.

سألتها جيني: من أي بلد أنت يا سميرة؟

أجابت: أنا من بنجلاديش.. من مدينة تدعى سيلهت، وهي تبعد عن العاصمة دكا حوالى ثلاث ساعات بالسيارة. كان أبي يعمل في الزراعة، في حقول الشاي هناك. أسرتي فقيرة، ولا نمتلك مزرعة، وبيتنا الفقير يبعد حوالي عشر دقائق عن ضريح شاه جلال.

سألها أحمد: ولكن كيف انتهى بك الحال هنا؟

أجابت سميرة في حسرة بادية، وقد صار جمودها يذوب مع حرارة الذكريات...

– نعم، كان ثمن الإقامة في لندن هو أسرتي. يا له من ثمن مرتفع! كان حلم أبي أن نمتلك مزرعة صغيرة على ضفة نهر سورما، أو فوق تلال جينشيا، كتلك التي اشتراها جارنا «نومان»، من الأموال التي كانت ترسلها ابنته «إلفيرا»، والتي سافرت إلى بروكسيل. لذلك، جئت إلى هنا بتأشيرة زيارة، على أمل أن أجد

عمـلًا مناسـبًا، أسـتطيع مـن خلالـه تحقيـق حلـم أسرتي. ومكثـت أعمـل في الفنـادق كعاملـة، لمـدة أربعـة عـشر عامًـا، مختفيـة عـن أنظـار رجـال الشرطـة، ولـن تتخيـل كـم عانيـت مـن ذلـك كثيرًا. حـين أكملـت أربعة عشر عامًـا، تقدمـت إلى إدارة الهجـرة لتسـوية وضعـي، حيـث ينطبـق عـليَّ قانـون منـح الإقامـة الشرعيـة لمـن تجـاوزت إقامتـه هنـا أربعـة عشر عامًـا دون أن يُقبـض عليـه. لقـد حصلـت عليهـا منـذ عامـين فقـط. كل تلـك المـدة لم أسـتطع زيـارة أسرتي. حتـى بعـد أن بـدأت الأوضـاع تتحسـن قليـلًا، وأصبحـت مديـرة للفنـدق هنـا، لكـن حلـم المزرعـة لم يكتمـل بعـد. لا يعلـم أبي أن «إلفـيرا» ابنـة جارنـا تعمـل في أحـد حانـات بروكسـل كفتـاة ليـل، تقـدم خدمـات جسـدها لضيوفـه في مقابـل تلـك المبالـغ ثمنًـا للمزرعـة. أنـا متأكـدة، لقـد أخـبرني بذلـك أحـد الأفـراد الذيـن احترفـوا توريـد الفتيـات مـن بلدتنـا إلى أوروبـا، كسـلعة يبحـث عنهـا الأغنيـاء، ضمـن شـبكة كبـيرة. كان ذلـك حـين أقـام يومـا في الفنـدق، بعـد توصيـة مـن أبي أنـه سيسـاعدني، لكنـي لم أخـتر ذلـك الطريـق، وإن غضـب أبي ولم يحقـق حلمـه.

سـكتت، ورفعـت حاجبيهـا ناظـرة إلى الأرض.. كانـت كأنهـا لا تصـدق أنهـا باحـت لنـا بحكايتهـا.. رفعـت عينيهـا إلينـا وأعـادت رسـم تلـك الابتسـامة الوظيفيـة عـلى وجههـا وهـي تقـول:

– أعتـذر يـا سـادة، لقـد أطلـت عليكـما وأشركتكـما في معانـاتي. سـأهتم بموضـوع الغرفـة يـا سـيد أحمـد، وأرجـو أن تبلغنـي في حـال عـدم رضـاك عـن مسـتوى الخدمـة، فنحـن نعتـز بعملائنـا.

حـين تركتهـما سـميرة، وعـادت إلى موقعهـا خلـف مكتب الاسـتقبال،

ظل أحمد يتابعها ببصره في صمت، يقرأ على وجهها ما فعلته الذكرى في نفس تلك المسكينة. كانت شاردة، تسمر نظرها على الجدار المقابل لها وكأن روحها سافرت إلى غابات سيلهيت، بأشجاراها الكبيرة المتشابكة، ومياه نهر سورما الجارية، وتلال تريبورا التي كانت تمرح فيها في طفولتها، وهي تبحث عن مخابئ النحل وبعض الجذور لأهلها. كانت تسترجع يوم ذهابها لأول مرة إلى ضريح شاه جلال مع أمها، حيث كانت تبيع بعض المصنوعات الريفية في السوق هناك. الذكرى ألانت ملامح الجمود التي تجاهد هي لإلباسها لوجهها، إلا أن الناظر يدرك أنها تخفي في صدرها بركانًا، يلتهم بعضًا منها. يالحنين هؤلاء الغرباء الذين ضاعت بوصلتهم، فلا انتموا إلى الأرض الجديدة، ولا عادوا إلى جذورهم ينتمون!

كانت الرياح قد هدأت إلى حد كبير، وإن كان المطر لا يزال يتساقط، حين انضم سليم إليهم، وجلس مواجهًا جيني..

- جيني، هل لكِ في مغامرة جديدة؟

ردت جيني بدون تفكير: بالتأكيد

رد جيني هذا رسم ابتسامة ماكرة على وجه أحمد، فقد جرَّب ما تعنيه مغامرات سليم المجنونة، والتي قد تنتهي بهم في مشهد صعب، لن تستطيع هذه الرقيقة التعامل معه.

وجه حديثه إلى أحمد قائلًا...

- إذن يا أحمد، هل تدعونا لتناول الغداء في نفس المطعم الصيني، الذي قابلت فيه تلك النادلة الصينية؟

غمز بعينه اليسرى في مكر، ففتح أحمد عينيه عن آخرهما، فهذا آخر ما توقع، ولم تتمالك جيني نفسها من الضحك. تنقل أحمد بينهما بعينيه، ثم ضحك قائلًا:

- أيها المخادع، أي عقل منحه الله لك!.. ما هذا العقل الماكر؟!.. على العموم يا سليم ليس عندي أية مشكلة، ولكني أخاف أن تعتقد النادلة أني قد غيرت رأيي، فأكون هكذا قد تلاعبت بمشاعرها، ولا أعتقد أن روحك الشريرة سترضى بمثل هذا الفعل الدنيء، والذي تعدى مراحل الشر. ألا تعتقدين ذلك يا جيني؟

ضحكت جيني، ثم قالت وهي تصطنع الحكمة والعقلانية:

- لا أعتقد انني من الممكن أن أوافق على ما يقوله سليم، فأنا لا أحب التلاعب بمشاعر الناس.. ولكن يبدو أن سليم حقًا... شرير

ضحك سليم قائلًا:

- كم أنت رائعة الظن بي يا جيني!.. على العموم يا صديقي المشاكس، لقد كنت أستثير ذاكرتك، ولكن من الواضح أننا نفهم بعض جيدًا، لذلك لم أفلح معك، وأنت لم تستسلم لمصيرك الذي أعددته لك.

ثم إن سليم نظر ناحية جيني قائلًا:

- هل تذوقتِ طبق الكبسة من قبل أيتها الجميلة؟

أجابت جيني بالنفي، وأردفت: من ماذا تعدُّون تلك الكبسة؟

أخبرها سليم أن الكبسة طعام شعبي في بلده، وهي عبارة عن الأرز البسمتي واللحم بتوابل شرقية.

قاطعه أحمد: أعتقد أن هذا اختيار جيد يا سليم، ففي المرة السابقة كان الطعام رائعًا بحق.

قال سليم: لكن هذه المرة سنذهب نحن إلى المطعم، فهو ليس بعيدًا عن هنا. إنه هناك في شارع ايدجوير.

نظر أحمد في خبث جهة سليم قائلًا:

- وبالمرة دعنا نمر على بقالة المصطفى

ونظر جهة جيني مكملًا:

- أعتقد أن جيني قد ترغب في معرفة ما يمكن أن يحدث أمام باب البقالة.

ضحكت جيني في مرح قائلة:

- من الواضح أنني سأستمتع بهذا كثيرًا أيها المشاغبان. ولكنني قد أفضل الليلة طعامًا خفيفًا، لأنني حقًا متعبة، كما إن الوقت قد تأخر.

ابتسم سليم قائلًا:

- معك كل الحق. بالفعل، نحن اليوم بحاجة لمكان هادئ، خاصةً أن هناك أمرًا مهمًا يجب مناقشته معك جيني

حين قال ذلك، نظر أحمد لجيني قائلًا:

- جيني دعيني أذكر أنهما أمران وليس واحدًا، نريد مناقشتهما معك. فلنذهب لمطعم قريب، شرط أن يكون هادئًا.

قال سليم: سنذهب لمكان هادئ، نعيش فيه تجربة إيطالية،

في هـدوء نسـتطيع معـه الحديـث، ونسـتمتع كذلـك بمـذاق الطعـام وأجـواء المـكان.

ظهرت علامات الفضول على وجه جيني...

- يبدو أن لديك اختيار محدد يا سليم، يلبي طموحك هذا.

- نعـم، إنـه بيـت الإسـباجتي في ماربيـل أرتـش. هنـاك يمكننـا أن نجلـس حـول طاولـة في مـكان مفتـوح خـارج المطعـم، ونسـتمتع في أجـواء إيطاليـة بمـذاق الإسـباجتي والكابتشـينو. فـن ذلـك المطعـم تخطـى عمـره الخمسـين عامًـا.

ظهـرت عـلى وجـه أحمـد علامـات الرضـا عـن الاختيـار، في حـين ابتسـمت جينـي وهـي تقـول:

- أنـت رائـع في اختياراتـك يـا سـليم. إنـك تعـرف لنـدن أكثـر منـي شـخصيًا!

قفـزت جينـي مـن المقعـد بسرعـة في حركـة مفاجأة،وتبعهـا الاثنـان نحـو بـاب الفنـدق.

...

كادت السـاعة تقـترب مـن الثانيـة عـشر ليـلًا، عندمـا صـاح الشرطي وهـو يحـاول أن يجـري بسرعـة خلـف بعـض الأشـخاص، ولكنـه يتوخى الحـذر خشـية الانزلاق، بسـبب ميـاه الأمطـار...

- إلحـق بهـم يـا فليـب، فقـد قطعـوا رؤوسـهم ونثـروا الدمـاء عـلى الحائـط

كانـت هـذه الجملـة كفيلـة بـأن يسـتجمع فليـب كل طاقتـه، في هـذا

الطقس البارد، ليقوم بالعدو خلف هؤلاء الأشخاص الذين لم يتبين فليب شكلهم.. في حين كان الأفراد المتسكعون في شارع أكسفورد قليلي العدد، بعد أن أغلقت معظم المحال، وبدا أن لا أحد يهتم بأمر المطاردة.

فشل الشرطيان في اللحاق بالجناة، الذين أسرعوا نحو محطة مترو أكسفورد سيركس، وقفزوا داخل أول قطار بسرعة كبيرة، واختفوا وسط ركاب المترو.

وقف فليب هناك على ناصية تقاطع شارع رجينت مع اكسفورد، بجوار السور الحديدى المحيط بسلالم النزول لمحطة المترو، وهو يلهث من المجهود الذي بذله. بلع ريقه بصعوبة، ثم نظر لزميله قائلًا:

- هل هم نفس الأشخاص مرة أخرى؟

أجاب زميله: لا أعرف تحديدًا، لكنهم هذه المرة قطعوا رؤوس أربعة سيدات ورجلين، ونثروا الدماء في كل مكان

صاح فليب غاضبًا: هؤلاء المجرمون يكلفون المدينة أكثر من أربعة ملايين إسترليني في العام لإصلاح تلك الرؤوس، والتخلص من كل تلك الدماء. يجب معاقبتهم بشدة، ولا يجب أخذهم بالشفقة كما حدث من قبل. لقد أفسدوا كل الإعلانات الموضوعة في المدينة بهذه الطريقة، ولا أفهم سببًا لقطعهم رؤوس الرجال والسيدات في الإعلانات، ولا لوضعها على مسافة من الجسم وتلطيخ الحائط باللون الأحمر، كأنهم يشتهون ارتكاب جريمة قتل، ولكنهم أجبن

مـن تنفيذهـا. أم تراهـم -هـؤلاء الحمقـى- يعتقـدون أن ثمـة فـن في هـذا؟!.

حـين قفـز الأشـخاص الثلاثـة داخـل القطـار، وانطلـق بهم، وشـعروا بانتهـاء المطـاردة، انتابتهـم نوبـة مـن الضحـك المتواصـل، وهـم يشـدون عـلى يـد بعضهـم البعـض... لقـد كانـوا رجلـين وامـرأة.

نظـر الأول للثـاني قائـلًا: عندمـا ذهبنـا لمطعـم بيـت الإسـباجتي، لم يكـن يـدور بخلـدي أننـا سـننهي الليلـة كالمجرمـين.

أطلقـت المـرأة ضحكـة مـن القلـب، عندمـا نظـرت للرجـل الثـاني قائلـة:

- أنت مجنون.. مجنون!

وراحـت تجذبـه مـن معطـف المطـر الـذي كان يرتديـه، وتنظـر في عينيـه في حـب، وقـد نمَّـت ملامحهـا عـما تضمـره داخلهـا، ومـا تنـوي فعلـه.

تلـك كانـت جينـي، وتلـك كانـت أول قبلـة تضعهـا عـلى شـفاه سـليم، وهـي تقـول لـه:

- أحبك يا سليم.

استسـلم سـليم لجينـي، وهـي تضـع أول قبلـة عـلى تلـك الشـفاه التـي ضاعـت لسـنوات طويلـة في شـوارع وطرقـات لنـدن، خائفـة مرتعبـة مـن أن تقيـم أي علاقـة، أو أن تتقـرب مـن أيـة شـفاه أخـرى، خوفًـا عـلى الطـرف الآخـر ممـا تحملـه مثـل تلـك العلاقـة مـن أذى. لكـن هـذا هـو القـدر، يرسـل ملائكيـة لتكسـر كل الجـدر التـي أحـاط

بهـا سـليم شـفتيه طـوال تلـك السـنوات، وتحطـم لنفسـها أيضًـا ذلـك الصنـم الـذي تعبـدت في محرابـه لسـنوات طويلـة. ولا أخفـي عليكـم، أن جينـي في تلـك الليلـة قـد منحـت سـليم قبلـة الحيـاة بالفعـل.

لا زالـت تفاصيـل تلـك الليلـة، وتلـك المغامـرة المجنونـة التـي قامـوا بهـا عالقـة بذاكـرة أحمـد، وقـد رواهـا بعـد ذلـك بسـنوات، أثناء جلوسـه مـع أبنائـه عـلى شـاطئ البحـر الأحمـر، في خليـج نعمـة بـشرم الشـيخ. ذلـك عندمـا وقفـت فتـاة روسـية - تشـبه جينـي إلى حـد كبـير، وإن اختلـف لـون البـشرة وتسريحـة الشـعر- عـلى الشـاطئ، تعـزف الجيتـار وتغنـي ذات الأغنيـة التـي غنتهـا جينـي ذات مسـاء، أثنـاء عبـوره هـو وسـليم بمحطـة مـترو ويستمينيسـتر لسـيلين ديـون: «قلبـى سيسـتمر»، ذلـك المسـاء الـذي بـدأت معـه كل الأحـداث.

انتحـب أحمـد وانهمـرت دموعـه، وعبثًـا حـاول السـيطرة عـلى نفسـه.. لكـن بـاءت محاولتـه بالفشـل. ذلـك لمـا عاودتـه الذكـرى. التـف حولـه أبنـاؤه يسـألونه عـن سـبب بكائـه، وقـد راعهـم أن ينتحـب بهـذا الشـكل، فتماسـك أحمـد قليـلًا، وقـص عليهـم ذكريـات رحلتـه إلى لندن، ومـا حـدث مـع سـليم وجينـي. حتـى وصـل إلى ذكـر تلـك المغامـرة...

- لمـا قفـزت جينـي مـن مقعدهـا جهـة بـاب الفنـدق، وخرجنـا في إثرهـا، كان الجـو بـاردًا، ورذاذ خفيـف مـن المطـر المنعش يداعـب جباهنا، لكـن كانـت معاطـف المطـر كافيـة للحـد مـن أثـره. توجهنـا عـلى الفـور إلى محطـة مـترو توتنهـام كـورت. كان مطعـم بيـت الإسـباجتي يقـع عـلى مقربـة مـن محطـة مـترو ماربـل آرتـش، عنـد تقاطـع شـارع العـرب (إيدجويـر) مـع شـارع أكسـفورد، وكان يتوجـب علينـا اسـتقلال قطـار

السنترال لثلاث محطات للوصول إلى هناك. في ذلك الوقت، كانت الساعة حوالي الثامنة مساءً، ولم يكن الظلام قدى أغوى السماء ليختلي بها في كهف الليل بعد.

حدث شيء غريب أمامنا، أثناء نزولنا السلالم المتحركة. ولأول مرة أرى مثل هذا المشهد في لندن.. كانت مشاجرة بين فتاتين، إحداهما شقراء أمريكية، كما بدت من لكنتها، والأخرى ذات بشرة سمراء. كانتا تتشاجران على صحبة شاب كان معهما، وانطلقت الفتاتان تتسابان بأعلى صوتهما، وتشتبكان. سمعنا إحداهما تقول إن هذا الشاب أيضا يحبها. وكالعادة، الشجار كان على أشده، في حين لم يلتفت أي من المنتظرين بالمحطة لأمر الفتاتين، بالرغم من ازدحام الرصيف في ذلك التوقيت.

وقفنا على رصيف المحطة، مقابل لوحة إعلانية ضخمة، بارتفاع كامل حائط النفق. كان عليها صورة لفتاة ترتدي ثياب البحر، وتقف بشكل مثير. وبعد ثلاث دقائق تمامًا، وصل القطار، وقفزنا داخله. توقف القطار بالمحطة التالية، وكانت أكسفورد سيركس، ثم بمحطة شارع بوند، وأخيرًا بمحطة ماربل أرتش حيث كانت وجهتنا. استغرقت الرحلة أقل من عشر دقائق، والمطعم الذي يبعد مسافة دقيقتين من محطة المترو كان اختيارًا ينم بالفعل عن ذوق سليم الراقي، وشخصيته المختلفة التي تتوق إلى روح المكان، وتتنسم عبقه، قبل أن تستمتع بالطعام.

استشعرت عبق المكان، وتذكرت ذات يوم، حين قال لي سليم إننا متشابهان، وأنه يتوجب عليّ أن أتحرك نحو منتصف الدائرة، حيث يقبع السر دائمًا. داعبت سليم قائلًا:

- ترى يا سليم هل تحدث اصطدامات كثيرة قرب باب هذا المطعم؟

ابتسم سليم قائلًا:

- لا أعتقد ذلك. ولكني سمعت أن هناك بالخلف يوجد مقهى للمثليين، لو أحببت أن تسترجع ذكرى أول يوم لك في سوهو.

ضحكت جيني ضحكة عالية على غير عادتها، ثم وضعت ذراعها في ذراعي قائلة:

- دعنا نذهب معًا يا أحمد لذلك المقهى، ونترك سليم هنا مع الإسباجتي والصلصة الإيطالية ذات عبق الماضي ورائحة المستقبل.

نظر أحمد إلى وجوه أبنائه المنصتين إليه، وابتسم وأكمل:

- عندما سمعها سليم تقول ذلك، اكتست ملامحه بالجدية. كنت في أعماقي أدرك أنها مصطنعة، لكني تعمدت ألَّا أفسد الأمر في أوله، وإن كنت أضمر التربص بهذا الثعلب. وتغيرت نبرات صوته وهو يقول...

- حسنًا، لنذهب معًا إذا لنواجه قدرنا في ذلك المقهى المشبوه؛ فأخلاقي لن تسمح لي بتركهم يلتهمونكما وحدكما.. ضميري لن يسمح بذلك أبدًا.

ضحكت جيني مرة أخرى، وطوقت رقبة سليم بذراعيها، ونظرت في عينيه بحب قائلة:

- بل سأظل معك يا سليم، فأنا لست مثلية

ثم أردفت ضاحكةً: مثل أحمد..

ثم اختلفت نبرتها وهي تكمل: وأيضا لأنني على ما يبدو سأقع في حبك أيها العربي الغريب.

يقول أحمد: لو نحينا الجملة الأخيرة جانبًا، مع تلك الضحكة العذبة، لأدركنا أن صوت جيني حمل في نبرته عاطفة تكفي لتحويل اللقاء بأكمله إلى لقاء غرامي. وإن كنت لا أحب التطفل على مثل تلك الجلسات، إلا أنني صحت:

- هيه، استيقظا. نحن بصدد مقابلة عمل وليس لقاءً غراميًا. لنجلس الآن.

اخترنا طاولة في الساحة الخارجية، فقد كانت الأمطار قد توقفت. وكما يحدث في الأفلام الرومانسية، تولى سليم سحب المقعد لجيني. إن سليم مغرم بجيني، وهي تبادله نفس الشعور، هذا لا شك فيه.

لما رأيت ذلك المشهد، لم أتمالك نفسي، والتفت لجيني هامسًا:

- يبدو أن رجلنا غارق في حبك أيتها العازفة، فانتبهي لجيتارك كي لا تقطع أوتاره، لأنه يبدو أن معزوفتك على وشك البدء.

الغريب، أن جيني نظرت نحو سليم وهي تقول:

- هل تدري يا سليم أنكما وقت وجدتماني في المطار، كنت أحلم بالفعل بأن جيتاري مقطوعة أوتاره!

ثم وجهت كلامها لأحمد قائلة:

- العجيب يا أحمد أن سليم هو من تولى بنفسه تغييرها، لأقوم بعدها بعزف أجمل مقطوعة في حياتي. حدث هذا، ثم فتحت عيني لأجد وجه سليم أمامي!

أمسكت بكف سليم، ووضعته بين كفيها في حنو وهي تربت عليه وتقول:

- يبدو أنك ستمنحني قصة عذبة لحياتي يا سليم، لتبقى معي تفاصيلها للأبد...

الغريب هذه المرة، أن سليم بدا على وجهه - ولأول مرة- حمرة خفيفة، وتلعثم وهو يقول لجيني:

- بل أنتِ ساحرتي الطيبة، يا جيني

رفع كفها يلثمه بشفتيه في حنو بالغ، جعلها ترتعش، وتهتز أركانها، أمام هذا المحب الذي اشتاق لتلك اللحظة التي حرمها لسنوات، فاستودع فيها كل مشاعره.

هذه المرة لم أقطع هذا التواصل العاطفي الملتهب، وإنما قطعه وصول النادل ليأخذ الطلبات. كان المطعم يقدم أنواعا غير محدودة من الباستا والمكرونة والصلصات والبيتزا الإيطالية، والتي تجعلك تشعر، مع أجواء المطعم والديكورات التي يغلب عليها اللون الأحمر، أنك تتناول طعامك في قلب روما. سليم هذا بالفعل فنان، هذا ما رددته بيني وبين نفسي وأنا أقرأ القائمة، وأكدت عليه وأنا أنظر إلى صور الأطباق الشهية، خاصة أن السعر لم يكن مبالغًا فيه بالمرة.

***

الفصل العاشر

حقيبة الذكريات

رجع أحمد في كرسيه، وهو يركز نظره على نقطة بعيدة في الأفق الممتد هناك داخل البحر أمامه مباشرة حيث كانت هناك «بنانا بوت» يتلاعب بها القارب، وفوقها يجلس ثلاثة يرتدون بدل الإنقاذ ذات اللون الأسود. تلك الرحلة، التي لم تستغرق سوى لحظات، كانت كافية أن ينفصل عن عالمه، فتسمرت عيناه على تلك النقطة، ولكن وعيه انسكب منه في وادٍ بعيد حيث ثنايا ذاكرته البعيدة، وتفاصيل أيامه في لندن. كانت أجزاء المشاهد المتلاحقة تتجاور، لتصنع صورة لم يكن ليبصرها بعين الحكمة من قبل. تذكر كيف تلاعب القدر بهؤلاء الثلاثة، وكان هو أحدهم. تذكر يوم أن هبط مطار هيثرو لأول مرة، وهو مفعم بالحماس لخوض تجربه ينقلها إلى أصدقائه عند عودته من لندن، فإذا به ينغمس بوجدانه داخل تجربة ستظل تروى من بعده لسنوات.. تذكر ذلك العشاء في ماربل أرتش، والمطعم الذى طغى على ديكوارته اللون الأحمر... أغمض

عينيه وهو يتذكر ما حدث لثلاثتهم، لما وقف أمامهم النادل ليأخذ الطلبات في تلك الليلة.

بعد أن تصفح قائمة الطعام، طلب ريسوتو أسبراجي، وهي المكرونة المطهوة مع جبن البارميزان، بعد أن قرأ ملحوظة قد كتبت بخط أنيق أنها الطبق التقليدي والمزين يدويا، وكان يدعى: «طبق الحب» كما أخبره النادل. وطالما أنه لم يصادف الحب بعد، كما حدث لرفيقيه، فقد فضَّل أن يلتهمه طبقًا على العشاء، لعله يسد جوع قلبه بعض الشيء. طلب أيضًا سلاطة الخضروات مع طبق الحب، والمعروف علميًا أن السلطة لا تجنح إلى عواطف محددة (أخبرته بذلك فتاة ليل صينية ذات يوم، حين دعاها لتناول طعام العشاء، إذ كانت الوحدة تعصف بذاته، ولم يجد سوى تلك الفتاة على محطة الأتوبيس في منطقة بار دبي. لم يكن من أصحاب الليالى الحمراء، لكنه كان يبحث عن الرفقة فقط) وبذلك، لم يكن هذا الصنف تحديدًا - وبالرغم من روعته وهو يتأنق في ثوب من الدريسنج الإيطالية - لم يكن ليسد تعطشه للحب في شيء. لم ينس أن يطلب عصير البرتقال الطازج أيضا، علَّه يحسن من مزاجه قليلًا، وهو الذي بدأ يتوق لمشاعر يراها تتجسد أمامه في عاشقين ارتحل قاربهما لتوه بحثًا عن مرفأ السعادة. جنح رفيقاه للتوحد، وطلب سليم وجيني بيتزا واحدة من الحجم الكبير من نوع المارجريتا بجبن البارميزان والريحان وشرائح الطماطم مع خضروات الصيف لكليهما معًا، وعصير البرتقال الطازج أيضًا. لم يتوقف أحمد كثيرًا عند ذلك، فقد كان يبصر ارواحًا تنسجم فتطير فوق غيمة قرب السماء،

ولـو أنصفنـا لقلنـا انهـما كانـا يحلقـان وسـط النجـوم، ولا نكـون قـد بالغنـا. لقـد صفـت أخـيرًا أجواؤهمـا التـي لطالمـا تلبـدت بغيـوم سـوداء لسـنوات مضـت.

قبيـل حضـور الطعـام، اسـتأذن سـليم لدقائـق إلى داخـل المطعـم، عـاد بعدهـا وانضـم لهـما دون أن يتحـدث. مـرت لحظـات، قبـل أن يحـضر النـادل السـلطات والعصـير. كانـت البيتـزا تحتـاج لخمـس عـشرة دقيقـة للإعـداد، لـذا طلـب أحمـد مـن النـادل إحضـار الباسـتا مـع البيتـزا وقتـما تكـون جاهـزة.

وجـه سـليم حديثـه إلى جينـي، وهـو يهيـم بوجههـا الملائكـي، ويـدرك يقينًـا أنهـا في تلـك اللحظـة تحلـق في محيطـه. لكنـه وضـع رداء الجديـة عـلى حديثـه قائـلًا:

– يجـب أن ننهـي نقاشـنا قبـل ثلاثـين دقيقـة مـن الآن. الأمـر متعلـق بـك جينـي، نحـن أصدقـاؤك، أليـس كذلـك؟

ابتسـم أحمـد في دهـاء، وهـو يـدرك أن كلمـة أصدقـاء هـي بالكليـة بعيـدة عـن واقـع سـليم في هـذه اللحظـة. أكمـل سـليم، بـدون انتظـار رد مـن جينـي:

– ونخاف عليك.. لماذا غادرتِ فجأة وتركتِ الشقة؟

ابتسـامة خجولـة علـت وجـه جينـي، وهـي ترجـع بظهرهـا في المقعـد قائلة :

منـذ بدايـة اليـوم وأنـا أحـضِّر ردًا مناسـبًا لهـذا السـؤال، الـذي توقعتـه يـا سـليم. لكـن هـا أنـا أمامـك يـا عزيـزي أفشـل في اخـتراع سـبب منطقـي.

لحظة صمت عبرت المكان، قبل أن تكمل:

- يا سليم.. هو شعور أرَّقني طوال ليلتي هناك، بأن منحك الشقة لي يعد نوعًا من أنواع المكافأة، وهذا ما اعتبرته استغلالًا رخيصًا مني لحالتك التي عايشتها أثناء رحلة العشاء، وأكون قد حققت من وراء ما فعلت مكسبًا شخصيًا.. وأنا لم أعتد هذا، ولا أقف مع الأصدقاء انتظارًا للمكافأة أبدًا. لم أنم طوال الليل بسبب هذا الشعور الذي أيقظ ضميري، فصار يردد في صمت حتى الفجر أنني قد تخليت عن إنسانيتي، وقبلت ثمنهًا لها هو تلك الشقة. كان يتوجب عليّ إنقاذ ما تبقى لي من روح، وأمنع نفسي من المضي قدمًا.. لذلك غادرت.

حانية كانت ابتسامة سليم، قبل أن يأخذ كفها بين يديه مرة أخرى، فيربت عليها وهو يقول:

- لم أعتقد غير هذا أيتها الملائكية. ذلك ما جعلني أقترب من حافة الجنون، لعلمي أني كنت السبب في غيابك، حيث جرحت طبيعتك النورانية. ذلك لخلل في شخصي أنا يا جيني.. أنا من يتوجب عليه تقديم الاعتذار لك، ذلك أني أرقت ليلتك، ودفعتك للشك في اختراقك لميثاق أيامك الذي رافقك.

التقط أحمد طرف الحديث من سليم قائلًا:

- يا سليم، هل سنمضي طوال الليل هكذا، دون التطرق إلى الموضوع الرئيسي والهام؟ دعني أتولى عنك ذلك أيها المتيَّم.

ثم إنه نظر إلى جيني قائلًا:

– جيني، أنت بالفعل محقة، وهذا ما كنا نناقشه منذ اختفيتِ. لكن الأمر لم يكن كما تخيلتِ. سليم قد وجد لك عملا مع فرقة غنائية للأطفال المرضى، براتب يكفي لسداد إيجار الشقة، والعيش عيشة كريمة. ليس المال هو ما دفعنا لذلك، بل هدف أسمى، هو علمنا أنك ذات قلب طيب قادر على العطاء وتقديم يد المساعدة لهؤلاء الأطفال، الذين حرمتهم الدنيا ربيعها. أعتقد أن ذلك ما تحبينه، وهو ما يناسبك.. إنهم بالفعل بحاجة لك.. ما رأيك؟

كان أحمد بارعًا في نزع الطلاء عن الأرواح، والتوغل داخل النفس البشرية، لذلك عرض الأمر بشكل يدرك تمامًا أنه يناسب تلك الحالة الفريدة من الإنسانية، التي هي عليها جيني. وكان له ما أراد، فقد ظهرت الفرحة على وجه جيني، وقفزت من مقعدها لتفاجئ سليم بعناق حار من خلف مقعده، وهي تقول له في مرح:

– أحبك أحبك أحبك

كانت المفاجأة كفيلة بفقدان سليم لتركيزه للحظات، قبل أن يمرر يده على شعرها قائلًا:

– جيني أنا أحبك من يوم التقيتك، وكنت أعلم أنك قدري، وأن قصتي ستنتهي عند نافذتك، لتبدأ معك أجمل سيمفونية في حياتي، ولأرسم أجمل لوحاتي فيك.

لما قال سليم هذا ،نظر له أحمد مداعبًا:

– أنت تجيد الرسم إذًا أيها الفنان المتخفي في مظهر متشرد.. كم مفاجأة ما زلت تخفيها يا سليم؟

ثم أشار أحمد لجيني أن تجلس، فعادت إلى مقعدها، وعاد أحمد يسألها:

- إذًا فقد قبلتِ العرض؟

وردت جيني في فرح:

- بالطبع.. بالطبع أقبله.

سألها أحمد إن كانت تود معرفة الراتب، فصاحت:

- أي راتب أيها السيد؟! لو استطعت أن أدفع كل ما لديَّ لأرسم بسمة واحدة على شفاه هؤلاء الأطفال المرضى لفعلت. موافقة بدون نقاش.

لكن سليم أضاف: هناك بعض التفاصيل التي يجب أن تعرفيها. ذلك أن هؤلاء الأطفال هم نزلاء دار رعاية، ملحقة بمستشفى لرعاية المصابين بمرض نقص المناعة المكتسب. إنها ذات المستشفى التي أتابع فيها تطور مرضي وأتلقى العلاج.

كان سليم في نفسه يستشعر أن ذلك لن يغيِّر من قرار جيني، ولكنه رأى أنها الأمانة التي تحتم عليه إخبارها بالأمر. لم تخيب جيني ظنه، فقد صفقت في مرح قائلة... وافقت، وافقت.

أضاف سليم:

- سأحدد موعدًا مع مدير دار رعاية الأطفال، لنذهب غدًا لمقابلته.

ثم استأذن سليم في تركها لطلب مدير الدار، والذي يبدو أنه صديق شخصي له. غاب سليم ما يقرب من ربع الساعة، شعرت

وقتها جيني أنها عمر كامل، وبدت عليها علامات الضيق. كان أحمد يراقب ذلك الشعور الذي طغى على ملامحها وهو يحدث نفسه.. كم أنت محظوظ أيها الرجل المشرد، هذه الفتاة تحبك حقًا، بل إنها تعشقك، بالرغم من قصر المدة التي تعرفت إليك خلالها. لقد كانت تبحث عن قلب كقلبك وروح كروحها.

حاول أحمد جذب انتباه جيني بعيدا عن مساحة التوتر، بالحديث عن عملها كممرضة سابقًا. لكن جيني لم تحاول إخفاء توترها، بعد أن غاب سليم كل ذلك الوقت، فلم تسأله حتى من أين علم بذلك، بل إنها نسيت جوعها ولم تقترب من المقبلات الموضوعة أمامها على الطاولة.

أحضر النادل الطعام، وكانت هناك ثمة مفاجأة أمام جيني. كانت البيتزا على شكل قلب، ومكتوب عليها باستخدام الصلصة: «أحبك يا جيني". لما وضع النادل البيتزا على الطاولة، كاد أن يغمى على جيني فرحًا بتلك اللمسة الناعمة التي أبدعها سليم. ولم يتوقف الأمر عند هذا، فقد قدم لها النادل وردة حمراء ملفوفة بشريط حريرى أحمر، دوِّنت عليه كلمة أحبك ثلاث مرات متتالية باللون الأبيض.

هذ المشهد جعل أحمد يراجع ما مر به مع سليم، وهو يتعجب كيف لشاب من الصحراء بكل تلك الطاقة النورانية من الحب! لكنه أدرك أن البشر جميعا خلقوا بقلوب تبحث عمن يستزرعها، ليخرج للعالم جمالًا يعبر الناس في ظله، وبدونه يضحى الدرب الذي نعبره عذابًا فوق العذاب، فلا ينجو منه عابر قط. احتضنت

جينـي الـوردة، وراحـت تقبّلهـا برقـة، ثـم أغمضـت عينيهـا وكأنهـا تودعهـا سرًا كتمتـه ثـم حـان وقـت خروجـه. لم يكـن أحمـد ليعـرف مـا قـد يفعلـه الحـب بالإنسـان قبـل ذلـك اليـوم، حـين رأى جينـي تنسـى مـا كانـت عليـه مـن توتـر وقلـق في لحظـات، وتنقلـب إلى حالـة مـن التحليـق في أجـواء الحـب الرومانسـية الحالمـة بـكل وجدانهـا.

وأخـيرًا، ظهـر سـليم عـلى البعـد، وهـو يحمـل حقيبـة جلديـة كحقيبـة لابتـوب. قفـزت جينـي مـن مقعدهـا، وجـرت نحـوه وارتمـت في صـدره، وارتاحـت برأسـها عـلى كتفـه وهـي تهمـس لـه:

– أحبـك أحبـك أحبـك، أيـن كنـت طـوال تلـك السـنوات التـي ضعـت فيهـا يـا سـليم؟ لقـد انتظرتـك طويـلًا حتـى كـدت أيـأس

راحـت دموعهـا تنهمـر، وهـي في حضنـه كطفلـة هاربـة مـن فـزع الدنيـا ولاجئـة إلى قلبـه. ظـل سـليم معانقهـا، يربـت برفـق عـلى ظهرهـا، ويمسـح شـعرها المرسـل.. إلى أن هـدأت، فأخذهـا سـليم مـن يدهـا إلى مقعدهـا، وبـدأ الجميـع تنـاول طعـام وقـد انفتحـت شـهيتهم، في أجـواء مـن الحـب الـذي غمـر المـكان فأضـاء جنباتـه وحمـل إليـه الـدفء.

ثم أن سليم نظر إلى جيني قائلًا في جديَّة:

موعدنـا غـدًا العـاشرة صباحًـا، لمقابلـة المديـر وتوقيـع عقـد العمـل. سـتبدئين مـن الغـد بمقابلـة الأطفـال، والتعـرف عليهـم، فـلا وقـت نضيِّعـه، نظـرًا لارتبـاط الفرقـة بحفلـة غنائيـة لجمـع الإعانـات اللازمـة لتمويـل أبحـاث العـلاج. أومـأت جينـي برأسـها، حيـث كان الطعـام في فمهـا يمنعهـا مـن الـكلام. كانـت موافقـة، وعـلى وجههـا تبـدت علامـات الحماسـة للحيـاة.

دخل القاعة عازف بيده آلة الكمان، ووقف خلف جيني تمامًا، وراح يعزف موسيقى أغنية قلبي سيستمر!.. تلك المقطوعة التي ولدت علاقتهما على ضفافها، وستشهد قصتهما حتى نهايتها. بدت اللحظة كالحلم الجميل الذي تتمنى ألّا ينتهي، وتألقت عينا جيني مبتسمتين لسليم بمعنى: الآن فهمت ما الذي أخَّرك.

لما فرغ الثلاثة من طعامهم، وتوقف العزف، نهض سليم من مقعده، وفى حركة خارج إطار المألوف في قاموس أحمد، لكنها على ما يبدو روح الفنان قد خرجت للتو من أعماق سليم، بعد تلك الهزات العنيفة المتتالية لقلبه.. فقد نهض سليم ووقف أمام جيني، وأخذ يدها في يده، ثم جثى على ركبتيه، ونظر إلى العازف، الذي بدأ في عزف مقطوعة هادئة أخرى، في حين راح سليم يردد أبيات شعرية حالمة لجيني.

حالة من الشفافية والدفء بين سليم وجيني، أدرك معها أحمد أن وجوده بات غير مناسب، فاستأذن في الانصراف. لكن سليم رجاه أن ينتظر، لأنه يعد لهما مفاجأة جديدة. كانت الحماسة بادية على وجه جيني، لما أتى سليم على ذكر مفاجاة، لقد بدأت تحلق في سماء هذا الرجل الذي عبر صحرائها ذات الجدب فأمطرها، فأينعت مشاعرها لهذا الإنسان الذي يحمل بين جنبيه قلب فنان وقلم شاعر وخيال مبدع، بالرغم من مظهره الذي اعتاد أن يرسمه في دقة وإتقان.

في حركة مسرحية، أخرج سليم من حقيبته حجر نرد، قائلًا:

– نحن الثلاثة سنقوم باللعب. سيقوم كل منا برمي حجر النرد، ولو كانت النتيجة واحد أو أربعة سأوجه سؤالًا لأحدكما.. ولو كان اثنين أو خمسة سيوجه أحمد السؤال.. ولو كان الرقم ثلاثة أو ستة، سيكون من حق جيني سؤال أحدنا. الشرط الوحيد لهذه اللعبة هو أننا لو بدأناها سنمضي قدمًا بدون توقف، حتى الانتهاء من عشرة أسئلة. يجب أن تكون الأسئلة في قمة الصعوبة، ولن يسمح للمشارك برفض الإجابة، ويمنع الغش أو الكذب تمامًا. هل توافقان على مشاركتي هذه اللعبة؟

دار في عقل أحمد أن هذا الرجل المدعو سليم قد ابتكر لتوه جهازًا لكشف الكذب، ولو وافق على اللعبة سيكون مجبرًا على وضع حياته وذكرياته ومواقفه السابقة كلها تحت رحمة من يوجه السؤال. حقًا إنها لعبة مغرية جدًا، عندما يحق لك السؤال، لكنها مؤلمة حد الكفاية عندما ينبش أحدهم في بقايا ذكرى حاولت طويلًا دفنها، أو قد اعتبرتها سقطت أو ماتت للأبد، فإذا بها تبعث أمامك حين يتوجب عليك الإجابة. رفض عقل أحمد أن يلتقط طُعم سليم، ذلك أنه كان يعلم أن سليم عبقري في استخدام أدواته، وسيصل إلى أعماقه مع أول سؤال، وهو ما لم يكن أحمد جاهزًا له في ذلك الوقت تحديدًا.

قال أحمد:

– لنبدأ بالسيدة الجميلة أولًا. هكذا تقضي قواعد الإيتيكيت

أشار بيده في حركة مسرحية ناحية جيني، التي ابتسمت في مرح قائلة :

– لم أعد أستطيع أن أقرر أيكما أكثر دهاءً من الآخر، سليم صاحب المفاجآت، أم هذا الثعلب الذي يناور ليعيد الكرة إلى مرمى خصمه في دهاء، من خلال العبور على ضيفتكما الضعيفة.. أنتما ذئبان أيها الرجلان!.. لكني أخبرك يا سليم أني سألتقط منك خدعتك، لأعيدها لك، ولكن في رداء اكثر نقاءً.

تجولت بناظريها فيهما مبتسمة، ثم قالت:

– لقد وافقت يا سليم؛ هل تدري لماذا؟ فقط لأني ليس لدي ما أخجل منه وأخاف أن يكشف سره أمامكما. بل لعلي أعجب أن تغامر أنت تحديدًا بالبدء في تلك اللعبة.

ثم أنها توجهت لأحمد قائلة:

– ها أنا قد اشتركت في اللعبة، فهل ما زلت تخشى كشف ما تخبئه من ذكريات داخل نفسك أيها السيد الذكي؟

هز أحمد رأسه رافضا في حسم، وقال:

– أنا غير جاهز عقليًا لمثل هذه اللعبة، ولكني قد أكون الحكم بينكما، فهل توافقان؟

أجابت جيني بدون تردد:

– نعم أنا عن نفسي أوافق.

ضحك سليم وقال:

– أيها الثعلب المصري، وقفت في المنتصف، حيث لك الحق في معرفة ما نخبئ وليس لنا الحق في كشف أغوارك. لكني على أي حال أوافق على وجودك كمحكِّم بيننا، على أن نُعدِّل القواعد لتصبح أرقام جيني واحد وثلاثة وخمسة وأنا الباقي.

واضعًا قناع ممثل قدير على وجهه، قال أحمد:

- بصفتي الحكم، أعلن قواعد اللعبة كالتالي: لا يسمح بالغش ولا الخداع ولا الكذب، ولا يسمح بانتهاء اللعبة قبل انتهاء الأسئلة العشرة، ولا يسمح بالتهرب من الإجابة، هل توافقان؟

كانت الإجابة هي الموافقة بالتأكيد من كليهما، ثم أنه أمسك النرد ورماه، فوقف الحجر على أحد أرقام جيني، فكان لها أن توجه هي السؤال لسليم.

سألت جيني سليم:

- كيف اتفقت مع العازف بدون أن نشعر، وماذا تحوي هذه الحقيبة، ومن أين اتيت بها بهذه السرعة؟

بدا لأحمد أنه سؤال ساذج؛ ذلك أنه لم يكن ليدرك بعد كيف تدير جيني قواعد لعبتها في مهارة فائقة.. لكنه اكتشف ذلك متأخرًا مع نهاية اللعبة.

يعتقد البعض أن الأسئلة البسيطة قد تحتاج لإجابات بسيطة، لكن بعض الأسئلة التي تبدو في ظاهرها بريئة كفراشات عابرة غير مضرة، قد تهز أعماق بعضنا لدرجة قد يعجز معها العقل عن إيجاد مخرج منها. ما إن انتهت جيني من توجيه سؤالها لسليم، حتى نظر أحمد ناحيتها وعلى وجهه علامات التعجب، كونها أضاعت فرصة سانحة لتوجيه ضربة قاسية لذلك الذئب المتوثب سليم، إلى درجة أنه ندم على عدم مشاركته في تلك اللعبة التي بدأت على عكس ما توقعه. لقد انطلق عقل أحمد، حين توقف حجر النرد

على رقم جيني، ليعد الأسئلة التي سوف تنقض على سليم بشكل مباغت وكامل.

لكن جيني كانت تتعامل مع الأمر من منطلق روحي رائع، ومستخدمة عقل واعٍ محب يخترق أعماق حبيبه في لين وهوادة، رغبة في أن تشارك هذا القلب ما يحمله، لا رغبة في هتك ستره. كانت لا تريد أن تخرج اللعبة من دائرة الحب لدائرة التنافس. إنها خطة عاشقة، لا لاعبة.

مرت دقيقة قبل أن يرتب سليم كلماته. نظر نحو أحمد قائلًا:

– لعلك ندمت على عدم مشاركتك، حتى تحظى بفرصة لتوجيه سؤال أصعب من ذلك.

ابتسم أحمد قائلًا:

– حقًا هذا ما يجول بعقلي أيها العراف.

ارتسمت على وجه سليم ابتسامة هي مزيج ما بين الحزن والبهجة مجتمعان، عينان تدمعان وابتسامة حقيقية، ولحظة صمت قبل أن يقول:

– ستعرف يا صديقي لأي مدى صعوبة هذا السؤال، وستدرك بأن هناك صورًا بسيطة، لكنها تحمل بين خطوطها حقائق مفزعة.

ثم إن سليم نظر ناحية جيني قائلًا:

– لقد علمتِ بأني ضائع هنا منذ سنوات، وأعيش حياة المشردين، ودائمًا ما أجوب شارع إيدجوير. وهناك التقيت بيتر، عازف الكمان

الـذي حلـق بنـا منـذ لحظـات، ذلـك الرجـل رقيـق المشـاعر. حـدث ذلـك منـذ ثـلاث سـنوات، بالقـرب مـن المقهـى الـذي جلسـت فيـه مـع أحمـد يـوم تقابلنـا أول مـرة. وتوطـدت الصداقـة بيننـا بعـد عدة لقـاءات، وعلمـت منـه أنـه عـازف بولنـدي، كان في وقـت سـابق يعـزف بالأوبـرا، هنـاك قبـل أن يـترك بلـده عـلى إثـر هـروب زوجتـه مـع عـازف الدرامـز بالفرقـة. واليـوم، عندمـا ذهبـت للمقهـى لإحضـار حقيبـة الذكريـات هـذه، (وأشـار إلى الحقيبـة التـي أمامـه) ولاسـمها قصـة سـأذكرها.. وجدتـه يعـزف هنـاك، فطلبـت منـه أن يـأتي لعـزف أغنيـة سـلين ديـون، التـي تحمـل ذكـرى أول لقـاء معـك. لقـد أصر بيـتر عـلى عـدم تقـاضي أي أجـر مقابـل العـزف، وكل مـا طلبـه -عندمـا علـم بكونـك مغنيـة وعازفـة- أن أطلـب إليـك أن تنضمـي إليـه في العـزف في أحـد الأيـام.

سـكت سـليم قليـلًا، قبـل أن يتنـاول الحقيبـة الجلديـة مـن عـلى الأرض، ليضعهـا أمامـه عـلى الطاولـة وهـو يربـت عليهـا قائـلًا:

- حقيبـة الذكريـات، أفتحهـا للمـرة الأولى منـذ قابلتـك جينـي. فقـط لكـما أنتـما الاثنـين، ولا أعـرف إن كان مـا سـأقوم بـه صوابًـا أم لا، لكنـي التـزم بقواعـد اللعبـة التـي اخترتهـا بنفـسي.

فتـح سـليم الحقيبـة، وسـط ترقـب أحمـد وجينـي. مـد يـده داخـل الحقيبـة، ليخـرج منهـا ألبـوم صـور فوتوغرافيـة، مكتـوب عـلى غلافـه بخـط كبـير باللغـة العربيـة... "هـذا دربي"... وعـلى أولى صفحاتـه كتبـت هـذه الأبيـات:

في يوم لم يولد بعد، ظمأت دجاجات حديقتنا
وأنا قلبي مرهف، لا يقدر أن يصمت عن عمد
فأشار أبي، يا ولدي احفر بئرًا تحت شجيرتنا
ومضت أيام وأنا أحفر، لكن لم يظهر ماء قط
ومضت سنوات وأنا أحفر وماتت جل دجاجتنا
لم أيأس، وبعد سنوات.. في تلك الحفـرة دفنت

وأسفل الأبيات كتب:

هـذا دربي، أعـبره وحيـدًا، بعـد أن ضلـت خطـواتي لسـنوات.. بعـد أن لفنـي الظـلام، وهجرتنـي المراعـي، وماتـت فراشـاتي. حقًـا لا أدري كيـف لعذابـاتي أن تنتهـي. هـل آن الوقـت للخـروج مـن تلكـم المتاهـة، التـي وضعـت فيهـا رغـمًا عنـي؟ أم أن المعجـزة سـتحدث، وتحمـل لي الأيـام آفاقًـا أخـرى؟ قـد يكـون الوقـت قـد تأخـر عندمـا تطالعـون هـذه المذكـرات المصـورة، لكنـي أقدمهـا لمـن وصلـت إليـه، ليعلـم مـا خسرتـه، ومـا ضـاع منـي خـلال رحلتـي البائسـة.

عـلى الصفحـة التاليـة، كتـب سـليم ذلـك العنـوان: «طفولتـي"، وعـرض عليهـا بعـض الصـور التـي تعـود لفـترة طفولتـه. كانـت الصـور لسـليم مـع والـده أثنـاء زيـارة للـوادي في قريتـه الواقعـة في قلـب الصحـراء، وصـور أخـرى أثنـاء زيارتهـما للنـدن، وكان سـليم كـما يبـدو في الصـورة لم يتجـاوز العـاشرة مـن عمـره بعـد. وكانـت هنـاك صـور أخـرى مـع والـده، أثنـاء زيارتهـما للـوادي، حيـث البيـوت القديمـة للقبيلـة، والتـي لم تعـد تسـكن، ولم يتبـق منهـا سـوى أطـلال تحكـي

حكايـة مـن عـبروا تلـك الأمكنـة ذات يـوم، ثـم خلفوهـا مرتحلـين.

أسفل صور الوادي كتب سليم:

((هنـا أحمـل ذكـرى يـوم الرعـب الأول في حيـاتي، عندمـا طـاردني ذلـك الكلـب الضخـم، بعـد أن تأخـرت عـن والـدي حتـى اختفـى عـن نظـري، فظهـر مـن فـوره ذلـك الوحـش، الـذي مـا زلـت أشـعر بسـخونة أنفاسـه التـي لفحـت وجهـي يومهـا. إننـي حتـى اليـوم لا أدري هـل كان ذلـك كلبًـا أم مخلوقًـا آخـر؛ لكنـي أعلـم يقينـا أننـي عرفـت شـعور المـوت خوفًـا في ذلـك اليـوم، ولا أدري كيـف عـدوت بـكل مـا أملـك مـن طاقـة حتـى وصلـت إلى موقـع أبي، وأنـا أصرخ وأكاد أمـوت مـن الخـوف. يومهـا احتضننـي أبي، وبالرغـم مـن مـرور كل تلـك السـنوات مازلـت أذكـر كيـف كان حضنـه دافئًـا، بـث في روحـي الأمـان بعـد الفـزع))

أنهـى أحمـد القـراءة والترجمـة لجينـي، ورفعـا عيونهـما إلى سـليم فوجـداه يمسـح دموعـه شـاردًا مـع صـور أبيـه. قـال لهـما:

– أذكـر أن قـال لي أبي واضعًـا يـده عـلى رأسي في حنـو: كـن رجـلًا يـا «عـلي»، فسـتواجه مخلوقـات هـي أشـد قسـوة وأكثـر توحشًـا مـن ذلـك الكلـب، بـل ستسـكن وتعيـش وتعمـل معهـم يوميًـا، فواجـه مصـيرك بـكل القـوة وبـكل شـجاعة، فلـن أكـون هنـاك لأدفـع عنـك تلـك المخاطـر، لكنـي سـأكون بالقـرب منـك، فـلا تخيِّـب ظنـي فيـك ولا تهـرب مـن قـدر وقـع بأرضـك، بـل كـن كالجبـال منتصبًـا دومـا أمـام الريـاح والأنـواء، ولتسـتمطرها عـذب المـاء.

أشار لهما أن يقرءا التدوينة أسفل تلك الصور:

((بعد كل السنوات، أدركت يا أبي أني لم أحسن رعاية وصيتك، وها أنا أهرب من الجميع متخفيًا ومستخدمًا قناع التشرد والغربة، وأعيش بائسًا.. انتظرني يا أبي، فأنا في الطريق إليك، ولن أتأخر كثيرًا))

وجم أحمد تمامًا، ودمعت جيني في صمت، إثر تلك العبارة الأخيرة. نظرت جيني ناحية أحمد، لعلها تخفي دموعها عن سليم، وقالت:

- لا أريد إكمال اللعبة، هذا يكفي.

نظر سليم إليهما، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الثبات الذي لا يتناسب مع الموقف وقال:

- بل أريد أن أكمل، كي أهزم ذلك الماضي الذي يحيا بداخل تلك الحقيبة للأبد. ساعداني كي أواجه حقيبة الذكريات، دون أن أتحطم على صخورها المدببة.

صمت أحمد قليلًا، وهو يركز نظره على نقطة بعيدة في مياه البحر على شاطئ خليج نعمة، وأولاده متحلقين حوله يستمعون الحكاية، وانسكبت دمعتان من عينيه لما تذكر حقيبة الذكريات تلك، وما حدث في تلك الأمسية، وكيف أن ما تحويه تلك الحقيبة كان بقايا إنسان لفت في عناية داخل مجموعة من الصور، التي كفن فيه صاحب الحقيبة روحه، وقد كان عزم الرحيل مع زائر طال انتظاره، بعد أن أبطأ به القدر لسنوات، فلم يطرق بابه، وكأن على

سليم أن يذهب هو إليه بنفسه. ذلك هو زائر الموت، الذي كانت تفوح رائحته من حقيبة الذكريات.

ردد أحمد بينه وبين نفسه... لا أعرف أية أقدار ألقت بي في تلك الرحلة، التي كنت قد قدرت أنها ستكون ممتعة، ألتقي فيها بعض الفتيات، وقد أجد خلالها وسيلة ما للعمل والحصول على الإقامة هناك. (ذكر لاحقًا لأحد أصدقائه أن عرض الزواج من الفتاة الكورية كان هدفه هو الحصول على الإقامة لو تم له ذلك) بعد أن توقفت إجراءات هجرتي لكندا، وقت أن كنتم تسبحون في عالم الغيب، (وأشار لأولاده الثلاثة الذين تحلقوا حوله وقد شبوا فأصبحوا رجالًا، وأنهوا دراستهم الجامعية، وانطلق كل منهم في دربه يسوسه ويتحسس موضع قدميه).

تمتم أحمد قائلًا في خشوع...

حقيبة الذكريات تلك، كانت لكلينا أنا وجيني بمثابة المقبرة، التي فتحت ذات عشاء، لتكشف لنا عن خبيئة دفنت لسنوات وكادت تطمر، لكنا كنا هناك في تلك اللحظات، لنعيد ترميم تلك الروح التي كفنها صاحبها في قبرها الذي اختاره بنفسه.

ثم أنه أكمل...

قدرنا كان أن نخرج تلك الروح من مقبرتها، لتجوب الدنيا شرقًا وغربًا، ثم ما تلبث أن تعود لنا مرة أخرى في مستقبل آخر، وبحلة أخرى. يا لتلك الأقدار التي تتلاعب بنا، نظل تائهين، حتى إذا ما أنقذت أرواحنا من ضياعها، فإذا بها لا تلبث أن تتلبس

بقدرية أخرى، في دوائر مستمرة ليس لها نهاية، إلا عندما توقف الشمس منح الجسد ظله.

صمت أحمد وهو يتذكر ما حدث في تلك الليلة، عندما طلب سليم إكمال اللعبة التي تحولت إلى لحظات مؤلمة، ورفض تمامًا أن تنسحب جيني. وعندما رمى أحمد بالنرد، توقف على رقم يخص سليم، فكان لسليم أن يوجه سؤاله لجيني، والتي كانت دموعها مازالت تبلل وجهها. حاول سليم رسم ابتسامة على شفتيه وهو يتوعد جيني قائلًا:

– سوف أحدث ثقبًا صغيرًا في ماضيك أيتها الجميلة، فلعلنا ننفذ من خلاله لنستكشف تلك الروح الجميلة، التي أراها تقفز في مرح ولكن خلف الضحكات هناك حزن قابع لا تكشف عنه لأحد.. وسؤالي هو: جيني، كيف تحولت إلى مشردة؟

تنهدت جيني وهي تقول في بساطة:

– هذه قصة تعود لسنوات، هل لديك وقت كاف لتستمع إلى تفاصيلها؟

نظر سليم نحوها في عطف وهو يقول:

– يسعدني أن أشاركك جزءًا من حياتك، ولو اقتضى ذلك الإنصات لأيام متواصلة.

بدأت جيني تحكي قصتها، منذ كانت طالبة في كلية التمريض في جامعة الملكة ماري في ميل إند.. قالت:

– كان هاري زميلي في الجامعة، وكنت متعلقة به. بدأت أحلامنا

تتعانق منذ اليوم الأول للدراسة، وكانت تنمو في كل يوم، حتى تحوطنا بسحابة من ألق. ذهبنا بعيدًا بعيدًا، فسافرنا إلى باريس معًا بالسيارة، ولم نملك الكثير من المال فكان بيتنا تلك السيارة الصغيرة، وقضينا هناك أجمل الأوقات. وفي إحدى مغامراتنا المجنونة، تسلقنا جبال الثلج في سويسرا، وكثيرا ما كدت أصاب، وكان هاري دومًا هناك لينقذني.

خلال تلك السنوات، كنت أغني مع الفرقة الجامعية، لكنه كان غناءً غير الغناء. لقد كنت أعزف مقطوعات تحمل أحلام المستقبل الذي كنت أنسج خيوطه في تلك الأيام. وكان حبي لهاري يدفعني لأحلام بعيدة، هي التي شكلت وجداني، ولم أعتقد أنني في يوم ما سأجلس وحدي أسترجع ذكراها.

صمتت للحظات وبدأت دموعها تتساقط، وهي تحاول جاهدة التماسك، قبل أن تكمل:

– هاري كان ملاذي حين سقط أبي مريضًا، وحين غادر عالمنا.. هو الذي كنت ألجأ إليه دوما، حين أواجه مصاعب الحياة. كان القلب الذي استطاع أن يحتويني، بعد أن ققرت الدنيا أن تحرمني ذلك الأب الرائع الذي منحني قلبه وروحه، وظل دومًا يرعاني، ولم يكن لي صديق سواه. اعتقدت أني لن أستطيع إكمال دربي بعد وفاة أبي، فقد كانت الحياة بالنسبة لي تبدأ وتنتهي عند ذلك الحضن الدافئ الذي يمنحني إياه في الصباح وقبل أن أذهب للنوم ليلًا، وحين سقط سقطت روحي معه، فلم أعد أستطيع استشعار أية فرحة أو لذة للحياة. وحدهها ري كان هناك.. وقف بجواري،

ساندني وكافح معي حتى يخرجني من تلك الحالة التي وصلت لها. لم ييأس أبدًا، بل ظل مثابرًا حتى تعافيت تمامًا بعد عدة أشهر، فأصبح هاري هو أبي، الذي أخذ بيدي ليكمل معي الطريق.

أغمضت جيني عينيها وهي تردد بين نفسها: كم أحبك يا أبي وكم أفتقدك!!

ساد الصمت للحظات، قبل أن تقطعه جيني قائلةً:

– لكن الحياة لا تريد لنا أبدًا أن نبحر بعيدًا دون أن تعصف بنا أو تلقينا إلى صخرة تدمي قلوبنا أو تحطم سفينتنا. لم تمر سنة على وفاة أبي، حتى رافقت أمي ذلك الرجل الذي كان يعمل بائعًا للملابس في إحدى المحلات الشهيرة. لا زلت أتذكر يوم انتقل للعيش معنا، وكيف رفضت هذا الأمر تمامًا، لكن أمي أصرت على انتقاله معنا مكان أبي. وحين أخبرت هاري بالأمر، عرض عليَّ الانتقال للعيش معه، ولكني فضلت ألَّا أترك أمي وحدها مع ذلك الرجل، الذي لم أشعر بالراحة تجاهه.

سكتت جيني عن الكلام وهي تخفي وجهها بكفيها، قبل أن تستسلم لنوبة من البكاء وهي تقول:

– لقد أنقذني هاري من بين يديه وهو مخمور، بعد أن مزق ملابسي. لولا جهاز البيدجر الذي كان هاري قد أعطاه لي قبل ذلك بفترة، واستدعيته به لينقذني، لكنت قد انتهيت على يد هذا المخمور الذي جلبته أمي ليعيش معها وليعتدي على ابنتها.

لكـن هـاري اسـتطاع أن يقتحـم المنـزل، وضربـه بعصـا البيسـبول عـلى رأسـه، ليسـقط مغشـيًا عليـه، ثـم أصر أن يتصـل بالشرطـة.

بعـد ذلـك الحـادث، انتقلـت للعيـش مـع هـاري، وخاصـة أن أمـي اتهمتنـي أمـام الشرطـة بأننـي كنـت عـلى علاقـة برفيقهـا، وأنـه لم يعتـدي عـليَّ، بـل إنهـا شـاهدتني معـه أكثـر مـن مـرة وهـو يعـاشرني. تلـك الشـهادة كانـت سـببا لإطـلاق سراحـه.. لقـد فضلتـه أمـي عـليّ!.. لم أجـد غـير هـاري يحتضنـني، فانتقلـت للعيـش معـه في شـقته، ومنـذ ذلـك الحـادث لا أعـرف أيـن أمـي، بعـد أن تركـت المنـزل الـذي عشـنا فيـه لسـنوات، لتعيـش مـع ذلـك الرجـل المدمـن. لقـد عشـت مـع هاري أجمـل أيامـي، كان هـو أبي وأمـي وعائلتـي كلهـا، يناديـني دومًـا بفتاتـه الصغـيرة بالرغـم مـن أننـا في نفـس السـن تقريبـا، ويحـرص دائـما أن يغمـرني بـكل المشـاعر التـي حرمـت منهـا، بـل إنـه قدمنـي إلى أهلـه، فرحبـوا بي، وكانـوا بـدلًا عـن أهـلي الذيـن فقدتهـم للأبـد.

سكتت للحظة، ثم تنهدت وأكملت:

– لكـن كان القـدر يخبـئ لي أمـرًا، لم أكـن لأقـدر أن أواجهـه هـذه المـرة. قُتِـل هـاري في حـادث، فانهـارت كل الأحـلام، وانهـار الجـدار الـذي أسـتند إليـه. انهـرت تمامًـا ولم يكـن لـديّ هـاري ليقيمنـي مـن جديـد. ثـم كان مـا تعرفـان عنـي، وتركـي لعملـي ولـكل الحيـاة، حتـى لم يبـق لي غـير تلـك الحديقـة وهـؤلاء الرفقـاء والسـنجاب اليتيـم.

أنهـت جينـي جملتهـا الآخـيرة، ثـم راحت تبكـي بشـدة وتنتحـب، ولم

تفلح كل الجهود التي بذلها سليم في تهدئتها. لذلك، عرض سليم القيام بمغامرة مجنونة، كان قد فعلها من قبل في إحدى نوبات يأسه. تلك هي تحويل الإعلانات المنتشرة في شوارع لندن لعمل فني، باستخدام الألوان.

وهكذا، انهينا اللعبة، وتحولنا إلى مغامرة في ماربل آرش، انتهت بمطاردة الشرطة لنا.

❊ ❊ ❊

الفصل الحادي عشر
فرقة الأطفال

في صباح اليوم التالي، كانت هناك فتاة جميلة، تقف بصحبة رجل أنيق حليق الذقن، أمام باب غرفة مدير دار رعاية الأطفال المصابين بمرض نقص المناعة، في انتظار الدخول. بعد دقائق، دخل الاثنان إلى المكتب، وقابلهما المدير بكل الترحاب أمام المكتب وهو يقول:

- مرحبا... سيد سليم، أهلا بك في مكتبي.

تقدم إليه سليم، وعرفه بجيني، وأخبره بأنها عازفة ومغنية بارعة، وكذلك كانت تعمل كممرضة، وذلك سيمكنها من رعاية الأطفال بشكل كامل. كانت سعادة مدير الدار لا توصف، عندما عرف منها أنها درست في جامعة الملكة ماري، حيث كان قد أهب نفسه أن قائدة الفريق ستحتاج بالطبع لطاقم طبي مساعد معها حين تكون برفقة الأطفال، وها هي الدنيا تضع في طريقه ممرضة

جامعية تحترف العزف والغناء، وبذلك سوف توفر عليه بعضًا من تكاليف الفريق المساعد، وسيكون بإمكان الدار أن تقدم بعض الحفلات الغنائية للترفيه عن الأطفال المرضى، ولجمع التبرعات لعلاجهم.

رحب مدير الدار مرة ثانية بجيني، وملامح الرضا قد ملأت وجهه، ثم اصطحب سليم وجيني بنفسه إلى مسرح صغير يقع في الطابق الثاني للمبنى، والمعد للفرقة الغنائية التي كان أبطالها هؤلاء الأطفال المساكين، الذين انتقلت لهم العدوى من آبائهم بغير ذنب. عرَّف مدير الدار جيني على المساعدة لها، وكذلك على أطفال الفريق، وأخبرهم أن جيني عازفة محترفة ستساعدهم في تقديم أغنيات تجعلهم من المشاهير. ثم التفت إلى جيني، وطلب منها أن تمر بمكتبه قبل أن تغادر، ثم تركها لتتولى عملها، واصطحب سليم عائدًا إلى مكتبه.

كان الفريق يتكون من سبعة أطفال، تتراوح أعمارهم بين السادسة والثالثة عشر، ويبدو أنهم قد قضوا أوقاتًا غير ممتعة مع مديرة الفريق السابقة، فلم يكن لديهم الطموح ولا الرغبة في التعلم، وإنما فقط مجرد الإحساس بالتغيير بعيدًا عن غرف الدار. قامت المساعدة بتقديم نفسها، وطلبت من جميع الأطفال القيام بذلك، ولم يكن الأمر ممتعًا لهؤلاء الأطفال. كانت جيني تلحظ ذلك، فقررت البدء في بناء الفريق الغنائي، لعل ذلك يشعرهم بالاختلاف، ويبعث الأمل في قلوب هؤلاء المساكين. لذلك، أخذت جيني الجيتار الموضوع على الجدار، وطلبت من الأطفال أن يشكلوا فرقتين،

واختارت أكبرهم سنًا حكمًا. قالت لهم إنها لن تختبرهم، بل ستقوم بعمل مسابقة بين الفريقين في الرقص، وهي التي ستقوم بالغناء.

أسعد ذلك الأطفال، فاصطفوا في صفين متقابلين، ووقف أكبرهم سنا كحكم، وبدأت جيني تعزف لهم أغنية "ماري صاحبة الخروف الصغير الأبيض"، والأطفال يقفزون في مرح ويضحكون في كل أرجاء القاعة. ثم راحت جيني في براعة تنتقل بالأطفال من أغنية إلى أخرى، ولم تشعر هي أو الأطفال بمرور الوقت، حتى دق الجرس معلنًا موعد الغداء، وآذنا بالعودة إلى النظام اليومي للدار، لكن بعد أن أحالته جيني في ذلك اليوم إلى عالم ينبض بالروعة.

كان هذا اليوم فارقًا في حياة الدار، فكل من عبر من أمام المسرح توقف ليشاهد هؤلاء الأطفال الذين نسوا آلامهم ومرضهم، وراحوا يغنون ويرقصون في مرح مع تلك الفتاة التي لا يعرفونها، لكنهم أدركوا أنهم أمام موهبة حقيقية، ليس فقط لأنها تعزف بكل براعة على الجيتار، بل لقوتها الروحية التي استطاعت بها أن تشارك الأطفال الغناء والرقص، وتقوم بتقليد الحيوانات، وأثارت حماس هؤلاء الصغار.

ذهبت جيني في نهاية يوم عملها الأول إلى مكتب مدير الدار، الذي استقبلها مرحبًا. لقد راقبها أكثر من مرة خلال اليوم، وفوجئ بهذا المناخ الذي أشاعته هذه القادمة الجديدة، وبتلك الروح التي تمتلكها، والموهبة التي تشرق شمسًا على برد الدار، الذي اكتسبته من أقدار هؤلاء المساكين والمناخ المحيط بهم.

كان مدير الدر، السيد سميث ذو الخمسين عامًا، رجلًا صارمًا. اعتاد جميع من في الدار توخي الحذر حين التحدث إليه أو العمل معه، فلم يكن من النوع الذي قد يغفر الأخطاء. وكانت لديه ذاكرة قوية، تجعله يتذكر كل الأشخاص الذين عبروا طرقات الدار طوال فترة عمله بها، والتي زادت على العشر سنوات، ودائما ما كان مجلس الإدارة يجدد الثقة به، للحرفية الشديدة التي يظهرها في عمله. كان صلبًا، قاسيا مع الجميع، لكنه يصبح كائنًا آخر عندما يتعلق الأمر بهؤلاء الأطفال المساكين. البعض لم يدركوا حقيقة ذلك الرجل، كونهم ظلوا دائما يرونه الشخص الفظ صاحب الأوامر التي لا تُراجع ولا يستطيع مخالفته أحد مهما كان. كانوا دومًا على مسافة منه، تبقي حقيقته كامنة هناك في أعماق نفسه، وتمكِّنه من فرض أوامره على الجميع. لكن تلك القادمة الجديدة إلى عالم الدار، كانت قادرة على فك رموز شخصيته في لحظات قليلة، هي تلك التي قضتها معه حين اصطحبها إلى حيث مكان المسرح، فقد لمحت في عينيه الحب والعطف الذي لا يشعر بهما سوى من حرم منهما. إنه كالأب الذي يجب عليه أن يخفي حنانه ليبدوا حازمًا ويحقق صالح أبنائه، وإن أساءوا به الظن. وقد كان يخشى أن ينقلب حال الموظفين لو استشعروا للحظة أنه من الممكن أن يلين، وقد يدفعهم ذلك للذهاب بعيدًا بالتهاون في تطبيق السياسات التي وضعها لإدارة الدار بالشكل الذي يراه مناسبًا.

كانت قد هيأت نفسها على موافقة السيد سميث على جميع طلباته، فقد شعرت داخلها أن هذا هو المكان الذي تنتمي إليه

بالفعل. لم تكن تعلم من قبل أن ما حرمته من مشاعر قد خلق بداخلها كنزًا من طاقات الحب والعطف، التي تتحين الفرصة للخروج. وها هو سليم يضعها على الطريق، وكأنه قد أخرج روحها فقرأها وعرف مواطن قوتها، فأرسلها إلى حيث تستطيع الاستمتاع بالعطاء. كانت تلك هي الأفكار التي تدور برأسها وهي تهبط درجات السلم متجهة إلى مكتب مدير الدار، وكلما هبطت درجة من درجات السلم، تذكرت حادثة ما مرت بها على الطريق الذي عبرته خلال حياتها، وتراجع ما قامت به حيالها. توقفت ذاكرتها عند اليوم الذي التقت فيه سليم، هذا الرجل العجيب الذي يحيا مآساته الخاصة، فإذا به يتحول إلى ذلك الرجل العملاق الذي ينتشل روحها من تلك البئر العميقة، فيعيد لها البريق ويمنحها في أيام ما حرمتها منه الحياة خلال السنوات الماضية. مع الدرجة الأخيرة من درجات السلم، كانت قد أيقنت بكل صدق أنها تحب ذلك الرجل.. سليم، بل قد ذهبت بعيدًا، فقررت الوقوف بجواره، وحتى لو كلفها ذلك عمرها كله، وكما أخرجها من دائرتها المظلمة، ستقف بجواره حتى تلتئم روحه، ولن تفارقه أبدًا، وستجعله يتخلى عن تلك الذكريات ويخلق واقعًا أحب إليه من الماضي.

عندما وصلت إلى تلك القناعة، كانت تقف أمام باب غرفة المدير. تحدثت إلى السيدة آسبن ذات الخمسة والثلاثين عامًا، والتي تضع نظارة طبية ولا تعتني بمظهرها، وتعمل سكرتيرة لمدير الدار منذ ثلاث سنوات. أبلغته آسبن بوجود جيني بالخارج،

فطلب منها أن تدخلها على الفور. شكرتها جيني، قبل أن تطرق باب غرفة المدير وتدير مقبض الباب النحاسي في هدوء، بدون أن تحدث صوتًا أثناء دخولها إلى مكتب السيد سميث.

قابلها السيد سميث عند الباب مرحبًا، بالرغم من أنه لم يعتد ذلك مع موظفي الدار، فهو دائمًا يضع تلك الحواجز المرتفعة بينه وبين موظفي الدار، خشية منه أن يتسلقها أحدهم يومًا ما، فتنهار جدران المكان وسيكون أكبر خاسر لو حدث ذلك هم هؤلاء الأطفال الضعفاء، الذين يرعى مستر سميث مستقبلهم المحفوف بالمخاطر، وهو الذي قد هيأ نفسه ليكون الحارس الأمين على هذا المستقبل. استقبلها مرحبا، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة. صافحها، ثم جلسا متواجهين على الكرسيين الخشبيين الأنيقين ذوي الطراز القديم واللذين وضعا أمام المكتب. كان الأثاث ينم عن ذوق مرتفع، وإن كان يميل أكثر للتقليدية، بما يشي بشخصية الرجل الذي يحافظ على تراثه ولا يحب العبث به، ويميل إلى النظام، وذلك أوضح ما يكون في طريقة ترتيب الكتب في المكتبة الصغيرة الموجود بالغرفة، وكذلك في طريقة رص القطع الفنية في أرجاء الحجرة.

استطاعت جيني في لحظات أن تقرأ شخصية الرجل. حدثت نفسها أن السيد سميث رجل يتحلى بروح الإنجليز التقليدية الصارمة، والتي لا تقبل العبث بالنظام، وتخفي جانب الحب في أقصى ركن ممكن من روحه، حتى لا يبدو ضعيفًا. لقد ذكَّرها بوالدها، ورأت في هذا الرجل الأب الذي غيبه الموت عنها منذ سنوات.

جلس السيد سميث مستقيما في مقعده، كرجل رياضي، وعلى وجهه نصف ابتسامة.

– سيدة جيني.. لقد رأيتك في المسرح اليوم أثناء عملك مع الأطفال، وفوجئت بطريقتك في العمل، فلم تعتد الدار كل هذا المرح من قبل. خلال العشر سنوات التي قضيتها هنا، لم أحظ بمديرة للفريق الغنائي تمتزج بأطفالنا بهذا الشكل الرائع الذي رأيتك عليه اليوم. لا أخفيك سرًا، أني أميل إلى أن تكون تلك الروح وذلك المناخ هما السائدان بين جميع جنبات الدار، ولكن الوضع الصحي والاجتماعي المحبط لنزلاء الدار يؤثر في العاملين هنا، فهم في نهاية الأمر بشر، ونفوسهم تتأثر بأجواء العمل. لكنني أعتقد أنك ستكونين الروح التي ستبعث ذلك الشعور بالدفء بين جنبات الدار، وستشعلين التنافس بين العاملين لبذل المزيد من الحب.

نظرت جيني إلى الأرض في خجل وهي تشكره، فأكمل السيد سميث محولًا الحديث إلى الناحية العملية أكثر:

– أريد أن أحدثك عن عدة امور تتعلق بسياسة العمل بالدار، وكذلك بعض الأمور المالية المتعلقة بعملك هنا، ثم أخيرًا عن بعض الأهداف التي أريد منك العمل معي على تحقيقها لصالح هؤلاء المساكين. سيدة جيني، ستسمعين خلف هذا الباب حكايات كثيرة عن مدير الدار (وأشار لمكتبه) وكيف أنه رجل قاس ليس لديه قلب، وكيف أنه قد أوقف الكثيرين عن العمل، وكيف أنه لا يقبل الخطأ مهما كان حجمه صغيرًا، ولا يتسامح مع الكذب وإن

كان منبعه الخوف، ولا يقبل التهاون في العمل. بل ستسمعين ما هو أقسى من ذلك، وكلها حقائق لا أنكرها، فأنا لا أقبل التهاون أبدًا، ولو فعلت لضاع هؤلاء الصغار الذين ليس لهم غيري، وفي سبيل الحفاظ عليهم سأقاتل كل الإهمال وكل الكذب وكل التهاون، ولن أقبل مطلقًا من أي فرد أن يقدِّم مصالحه الخاصة على مصلحة هؤلاء الأطفال. من يرفض العمل بتلك السياسة، فليس له مكان بين جنبات الدار، وسيجد نفسه محمولًا إلى الخارج بأقصى سرعة ممكنة، كي لا يبذر مثل تلك البذور بين من حوله، لتنبت ثمارًا كريهة تفسد المكان. هذا أنا سميث مدير الدار.

لم تفلح محاولات القسوة التي غلَّف بها السيد سميث كلماته في أن تزيح تلك الفكرة التي كوَّنتها عنه جيني؛ بل إنها توقعت أن يكون ذلك هو منهجه، فهي قد راقبته كما راقبها، ورأته وهو يتحرك بين جنبات الدار، يخشاه العاملون، ويحبه الأطفال. لذلك، قالت وعلى وجهها علامات الجدية:

– سيد سميث.. النظام هو ما يجب أن نحافظ عليه جميعًا، كي نستطيع العمل بشكل فعال، وننجز ما يتوجب علينا إنجازه. أنا أتفهم ذلك جيدًا، ومن كل أعماقي أتقبل تلك السياسة الحكيمة، لأنها في ظاهرها القسوة ولكنها تحمل بين ثنايها الأمان للجميع، وخاصة هؤلاء الأطفال. كن على ثقة أني سأكون في جانب النظام دومًا، شريطة أن يترك الباب مفتوحًا لمراجعة قواعده حال يتبين أنها لا تصلح. ذلك سيجعل الجميع يشاركون في خلق نظام العمل الأمثل لهم في المكان، والذي يأمل الجميع في تبنيه والحفاظ عليه.

ابتسم السيد سميث وهو يحدث نفسه.. يا لك من فتاة! كيف استطعت الإفلات من ذلك الفخ، بهذا الرد العبقري؟!.. أيقن أنه يتعامل مع شخصية من طراز خاص، موهوبة بالفطرة، وتستطيع قراءة ما خلف الكلمات، ولا تتوقف أبدًا عند ما تبدو عليه، بل تنفذ إلى الأعماق لتفك الرموز بتلقائية عجيبة. سأل نفسه إن كانت قد استطاعت أن ترى جانبه الآخر أم لا، وأدرك أنها لن تأخذ وقتًا طويل للوصول إلى أعماقه، فهي قادرة على الوصول إلى خبيئته في وقت قصير بتلك الروح التي تتحلى بها.

أكمل السيد سميث قائلا:

- أما الأمر الثاني، فهو المتعلق بالراتب الذي كنت قد اتفقت مع السيد سليم على منحك إياه، نظير القيام بعملك كقائدة للفريق الغنائي. كان الاتفاق هو منحك ألف وخمسمائة جنيهًا إسترليني شهريًا، وأريد أن أراجع هذا معك.

صمت للحظات، حتى يقرأ كيف ستتعامل مع هذه البداية، ليستكشف جانبًا جديدًا من شخصيتها. نظرت نحوه وهي تبتسم قائلةً:

- سيد سميث.. أستطيع العمل بأقل من ذلك بكثير. بل إني لن أذهب بعيدًا بقولي إنني يمكنني أن أقبل العمل بدون أجر، لو وفرت لي المعيشة في سكن الدار.

أعاد هذا الرد الكرة إلى ملعب السيد سميث أشد قوة، بعد أن فوجئ بهذه الفتاة تغزو مرماه بكل قوتها الروحية، لتحرك بداخله

مخـزون الإعجـاب الـذي تعمـد إخفـاءه دومًـا، ليجـد نفسـه معجبًـا بتلـك الفتـاة الجالسـة أمامـه، والتـي لم يعـرف مـن أيـن سـماء هبطـت عليـه. لقـد لمعـت نظـرة الإعجـاب في عينيـه بشـكل لم يسـتطع إخفـاءه وهـو يقـول:

– بـل لعـلي أعـرض عليـك أمـرًا آخـر. السـيد سـليم أخـبرني بأنـك تسـكنين شـقته لفـترة، لذلـك سـتكون لـك غرفـة مخصصـة للسـكن في الـدار، ومجهـزة تمامًـا، وسـتمنحين مبلغًـا شـهريًا مقابـل عملـك كمديـرة للفريـق مقـداره ألفـا جنيـه إسـترليني.

كادت جينـي تطـير مـن الفـرح، وهـي التـي كانـت قـد هيـأت نفسـها لغـير ذلـك. لكنهـا تمالكـت نفسـها وهـي توجـه حديثهـا للمديـر قائلـةً:

– سـيدي، لعلـك بتوفـير السـكن قـد وفـرت عـليّ عنـاءً كثـيرًا، فأرجـو منـك أن تسـتقطع مـن الراتـب الشـهري الخـاص بي مبلـغ ألـف جنيـه، كـي يوضـع في صنـدوق التبرعـات الخاصـة بهـؤلاء الأطفـال بشـكل شـهري.

قبـل السـيد سـميث طلبهـا هـذا، وتنـاول هاتـف مكتبـه وطلـب مـن آسـبن أن تعـد عقـد العمـل الخـاص بالسـيدة جينـي، قبـل أن ينظـر إلى جينـي ويحدثهـا عـن الأمـر الثالـث..

– وصلنـا إلى مسـألة الأهـداف. أريـد منـك أن تخلقـي مـن هـؤلاء الأطفـال أبطـالًا. أنـا لا أريدهـم مغنيـين، بـل أريـد أن تبثـي روحـك بينهـم. أريـد لـكل منهـم أن يخلـق حلمـه الخـاص، لا أن يتبعـك. إنهـم يحتاجـون الأمـل ليدعـم نفوسـهم الضعيفـة، فأريـدك أن تمنحيهـم مـن

قوتك وعزمك وموهبتك جواز العبور إلى العالم الذي نحياه، فضعفهم بسبب المرض لم يمكنهم أبدًا من تجاوز خط البداية، ولن تسمح طرقاتهم الضعيفة على أبواب الحياة أن يفتح لهم أحد أبدا.

صمت لحظات، قبل أن يكمل:

- إن ظروفهم تفرض عليهم أن يحطموا الأبواب المغلقة، لا أن يطرقوها. لا أريد منهم انتظار أحد كي يشفق عليهم ويفتح لهم الباب. لن أسامح نفسي لو وصلت لهم رسالة كتلك. عليك أن تساعديني كي أقيم أعمدتهم، حتى يصبح كل منهم شامخًا، لا يصل إلى قامته أحد من الأسوياء. أعلم جيدًا أنهم ضعاف، ولكن الأسوأ من ضعفهم هو رفض المجتمع لهم وعزلتهم في هذه الدار. ولكن دورك الحقيقي أن تجدي قوتهم الكامنة. مارسي سحرك الخاص، وابعثي تلك القوة كي تخرج للعالم. ازرعي في داخل كل منهم قلبا مثل قلبك، وروحا مثل روحك، وقوة مثل قوة نهرك، لا يوقفها ابدًا عائق.

كان وجه جيني قد احمر، وشعرت بالخجل الشديد من نفسها، فهذا الرجل يظن فيها قوة، لو كانت فيها لما أضاعت نفسها في الحياة العديد من المرات. لم تستطع أن تخبره بحقيقة تاريخ ضعفها، فعندما أنهى المدير جملته الأخيرة، كانت آسبن قد أحضرت العقد الخاص بها، وناولته للسيد سميث، الذي اطلع عليه بشكل سريع، ثم ناوله إلى جيني وطلب منها الإطلاع عليه وأخذ وقتها في التفكير في كل سطر فيه، ومن ثم توقيعه حال قبولها. لكن جيني كانت قد قررت أن مكانها هنا مع هؤلاء الأطفال، لم تكن لتتوقف عند

التفاصيل، فقامت بالتقاط أحد الأقلام التي صفت في عناية على مكتب المدير، ووقعت العقد دون أن تحاول قراءته، ثم أعادت القلم إلى موضعه الأصلي، وحرصت أن يكون في نفس الموضع بالتحديد، وبكل الدقة الممكنة.

ابتسم السيد سميث في هدوء.. لقد وصلت جيني بالفعل إلى فهمه، وبسرعة لم يكن يتوقعها، فيالها من فتاة!

وبخبرة رجل مثله، قال لها في جديَّة:

- حسنًا يا جيني.. لا تفعلي هذا أبدًا، مهما بلغ حسن نواياكِ. دعي هذا العقد معك الآن، وعاودي قراءته عدة مرات، ولك الحرية في تمزيقه إن وجدتِ فيه ما لا يقبله عقلك، بعد أن تهدأ انفعالاتك. للمرة الثانية.. لا توقعي شيئًا لم تقرئيه يا جيني.

أخذت جيني العقد من يد السيد سميث، وقد اتسعت ابتسامتها وزاد انبهارها بهذا الرجل.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني عشر
عودة الروح

أكمل أحمد حكايته لأولاده قائلًا...

وبدأت جيني تتحرك ناحية سطح البئر شيئا فشيئًا، وخلال الأسبوع الأول لعملها كنا نتقابل أنا وهي وسليم في نفس المطعم في ماربل آرتش كل يوم. وبدأ سليم يساعدها في رعاية فريق الأطفال، وبعد الاتفاق مع السيد سميث، قام بالاتفاق مع أحد دور الأزياء لتصميم ملابس الفريق، واستطاع هو وجيني إشراك فريق الأطفال الغنائي في تصميم تلك الملابس كما يحبونها. أعطى ذلك ثقة غير محدودة للأطفال، فقد كانت بصماتهم الخاصة على ملابسهم التي يرتدونها في حفلاتهم الغنائية.

ثم إن سليم بدأ العمل على تصميم وطباعة منشورات الدعاية الخاصة بالفريق بدون مقابل، وكوَّن الثلاثة هو وجيني ومدير الدار فريقًا للعمل، ووضعوا خطة تمويلية. وكان على سليم الجانب التنفيذي للخطة، فقام بزيارة الكثير من الشركات، واستطاع إقناع

الكثير منها بتمويل حفلات الفريق، مقابل وضع اسم الشركة على لوحة وضعت عند مدخل قاعة المسرح، وتصوير ذلك والتسويق له عبر وسائل الإعلام. وكذلك تم الاتفاق على زيادة المقابل المادي، في حال قيام الفريق بحفلات غنائية خارج الدار أو خارج لندن.

راحت جيني تبعث الروح في هؤلاء الصغار بكل قوتها، وبنفس حماس أول يوم في عملها. أنتج إخلاصها إعلانًا عن وجود مواهب بازغة بين أطفال الدار، ثم ميلادًا حقيقيا لفرقة غنائية عظيمة منهم. راحت توزع ألقها وروحها المرحة بينهم، وبدأ الأطفال يشعرون بها أمًا لهم، وهم الذين لم يملكوا تلك المشاعر يومًا، وها هو القدر يرسل لهم من لديها من العطاء والحب ما يكفيهم جميعًا ويفيض.

لقد مارست جيني موهبتها التلقائية في بعث الروح في كل من تقابله، وحتى العاملين في الدار امتد تأثيرها لهم، ولاحقًا سيذكرونها كثيرًا، وسيحتفظون بصورهم معها للأبد. وحين جاء الوقت لتزيح الستار عن مشروع السيد سميث، وأن تخرجه للنور كي يتنفس الحياة، وحتى يعرف الجميع أن هناك أملًا يوشك أن يولد في قلوب فريقها، وليتحمس الجميع أن بإمكانهم أيضا المشاركة في ولادة ذلك الأمل، استأذنت من السيد سميث أن يقوم الأطفال بجولة للترحيب بكل الموجودين في الدار، وتقديم أنفسهم للجميع على أنهم أشهر فرقة غنائية في العالم. كانت قد اشترت هي وسليم بعض الحلوى والألعاب تكفي لجميع أطفال الدار، وحرصت على أن تشتري ألوانًا للرسم على الوجه. وفي الصباح، ذهبت مبكرًا إلى الدار، فجهزت المسرح بشكل كامل، وحين حضر الأطفال بعد

تناول طعام الإفطار، كانت المفاجأة والألعاب والبالونات قد ملأت المكان بأكمله. أسرع آدم. أصغر أطفال الفريق، وعمره لم يتعد السادسة بعد نحو جيني، واحتضنها تملأ وجهه الفرحة، وهو يقول لها:

- شكرًا يا أمي... هذا عيد ميلادي، أليس كذلك؟

جثت جيني على ركبتيها واحتضنته ونظرت في عينيه وقالت:

- هل أنت تعرف يوم ميلادك يا آدم؟

هز رأسه نافيا، وقال:

- لا أعرفه.. أنا فقط تمنيته كثيرًا، وكنت أحلم بأمي تعد لي كعكة كبيرة جدا

ضحكت جيني، وخبطت كفها على رأسها وهي تقول:

- اووه، ذكرتني بالكعكة يا آدم، لابد أن أكلم الخباز، كي يجهزها، فهو رجل عجوز دائما ينسى ما أطلبه منه. لقد طلبت منه أن تكون بالشيكولاتة كما تحبها.

ضحك آدم كثيرًا، وجرى إلى رفقائه يخبرهم بأمر الكعكة التي ستحضرها "ماما"، بينما أسرعت جيني لطلب سليم على الجوال، وطلبت منه أن يحضر معه كعكة كبيرة بالشيكولاتة، وأن يكتب عليها "عيد ميلاد سعيد يا آدم". قامت جيني برسم شخصيات الكارتون بالألوان على وجه الأطفال، ثم بدأ الفريق بالمرور على جميع أطفال الدار، لتعريفهم بأعظم فريق غنائي في العالم، ودعوتهم لحفل عيد ميلاد آدم، والذي سيقام على مسرح الدار بعد ساعة.

عندما يعبر بحياتنا شخص يحمل روحًا مشعة بالنور، وقتها سيكون الميلاد الحقيقي لأرواحنا. حدث هذا بالفعل لجميع أطفال الدار، وليس الفريق الغنائي وحده. لقد شعروا بميلادهم الجديد.. كانت صدفة قدرية أن يكون اسم صاحب عيد الميلاد آدم، وكأنها إشارة لخلق جديد. كان ميلادًا صحبته الفرحة والبهجة التي طغت على جنبات الدار، فأحالتها لحديقة غناء لم يحدث أن كانتها من قبل.

كان أشد الناس سعادة في ذلك اليوم هو السيد سميث، والذي لم يكن يدري وهو يقول لجيني بأنها موهوبة أنها ستذهب بعيدًا بذلك الشكل، وفي هذا الوقت القصير. لم يكن السيد سميث ليخفي فرحته في ذلك اليوم، ورأى أنه من الجيد أن يفعل شيئًا يشجع العاملين أيضًا على مساعدة جيني، فطلب آسبن على الهاتف، وطلب منها أن تحضر أسماء أفضل ثلاثة عاملين في الدار، طبقًا لتقييم الشهر الماضي، وطلب من إدارة المشتريات أن يقوم موظف منهم على الفور بشراء ثلاثة أجهزة جوال، وإحضارها لمكتبه خلال أقل من ساعة.

عندما بدأ حفل عيد الميلاد، كانت خشبة المسرح قد امتلأت بأطفال الدار، وهم يحيطون بالسيد سميث، وعلى طرف المسرح وقفت جيني والمساعدة، وفي منتصف المسرح وضعت طاولة صغيرة عليها كعكة كبيرة كتب عليها اسم آدم.

بدأ الحفل السيد سميث، موجهًا كلمة أبوية للأطفال. شعر الجميع في ذلك اليوم لأول مرة أن هذا الرجل قد تبدلت شخصيته للنقيض. منحت كلمته الأطفال الشعور بأنه أب للجميع. هنأ آدم

بعيد ميلاده، ووعد جميع الأطفال بالاحتفال دومًا بأعياد ميلادهم، مما جعل القاعة تضج بالتصفيق، واحتضنه جميع الأطفال في مشهد لم يحدث من قبل في دار الرعاية. ثم وجه السيد سميث حديثه للعاملين في الدار قائلًا:

- وضعت نظامًا صارمًا للدار، حتى نضمن جميعًا سلامة أبنائنا هؤلاء. واليوم، أدرك أننا بحاجة للحب إلى جوار النظام، حتى نستطيع أن نمنحهم أرواحًا قوية وأملًا في المستقبل وإيمانا بقدراتهم. لن نغير النظام، ولكنكم ستكونون أنتم النظام، بل ستكونون أنتم الدار، لعل ذلك ينطلق بنا جميعًا إلى آفاق مبدعة تخلق من أطفالنا أبطالًا. لذلك، فبعد عيد ميلاد ابننا آدم، سنحتفل أيضًا بأفضل ثلاثة موظفين لدينا، طبقًا للتقييم الشهري، وستوضع صورهم على لوحة الشرف الخاصة بالدار، وسيمنحون هدايا قيمة، عرفانًا لهم.

امتلأت القاعة بالتصفيق، وقامت مساعدة جيني بإشعال شموع الكعكة، وأطفئت الأنوار، وبدأ الجميع يغنون لآدم احتفالًا بمولده، وهم يشعرون أنهم يحتفلون معه بميلاد الدار وببعث الروح بين جنباتها...

سوى السيد سميث!

يكمل أحمد... بنهاية الأسبوع الأول لجيني في عملها الجديد، كان عليَّ المغادرة عائدًا إلى مصر، بعد أن انتهت الإجازة التي كنت قد حصلت عليها للبقاء معهما لفترة أطول. فارقتهما وأنا على يقين أنهما سينطلقان بكل القوة الممكنة، ولم يكن فراقنا سهلًا أبدًا،

ولـن أنسـى حـين احتضنني الاثنـان مودعـين، قبـل الدخـول إلى صالـة السـفر في مطـار هيثـرو. كانـت لحظـات شـعرت فيهـا برغبـة جارفـة أن أبقـى هنـاك إلى جوارهمـا.. لكـن لم يكـن ذلـك ممكنًـا.

اتفقنـا عـلى التواصـل بشـكل يومـي مـن خـلال الإنترنـت، وغادرتهـا ولم يغـادراني، بـل ظـلا معـي أينـما ارتحلـت لسـنوات لاحقـة. يومهـا جلسـت بجـوار رجـل تونـسي، لم يتوقـف عـن الحديـث طـوال مـدة الرحلـة، ولكنـي حقًـا لم أكـن أنصـت لمـا يقـول. كانـت أحـداث الرحلـة تمـر في مخيلتـي بـدون توقـف، وعـدت إلى بلـدي، وداومـت عـلى التحـدث إليهـما يوميًـا.

عرفـت بعـد ذلـك أن جينـي أقنعـت مديـر الـدار بعمـل دوائـر مـن موظفـي الـدار، بغـرض بـث الـروح، وكانـت كل دائـرة تتكـون مـن ثلاثـة أفـراد فقـط، وكانـت مهمـة كل مـن تلـك الدوائـر القيـام بعمـل مبـدع، شريطـة مشـاركة الأطفـال في صنـع القـرار. كان ذلـك هـو النـواة لمجلـس الإدارة المـوازي، الـذي تـم إنشـاؤه مـن الأطفـال لاحقًـا، والذي جعـل الأطفـال يديـرون الـدار بأنفسـهم، فخلـق ذلـك مـن كل منهـم مديـرًا بالفعـل.

طلبـت جينـي مـن سـليم أن يقـوم هـو بتأليـف كلـمات الأغـاني التـي سـيقوم الفريـق بأدائهـا. كانـت تريـد فريقًـا غنائيًـا محترفًـا بالفعـل، ولم تشـأ أن يـردد الأطفـال نفـس الأغـاني التـي اعتـاد النـاس سـماعها. وبالفعـل، قـام سـليم بتأليـف جميـع أغـاني الفريـق، وقامـت جينـي بتلحـين تلـك الأغـاني، والتـي كانـت تعمـل عـلى خلقالـروح القويـة داخـل هـؤلاء الأطفـال، فكانـت أولى الأغـاني تحكـي قصـة فتـى بحـار،

واجـه الخطـر والعواصـف، وأبحـر شرقًـا كـي يحـضر مـن ينقـذ أهلـه مـن المـرض الـذي انتـشر في البـلاد. كانـت كلـمات الأغنيـة التـي شـارك الأطفـال سـليم في وضعهـا تقـول:

مع الرياح صبحًا وحدي سأنطلق
وأبحر بسفينتي الصغيرة شرقًا
لن أسمح أن تسقط يا أبي أبدًا
سأضحي بنفسي لأنقـذ أخوتي
لن أترك شراعي ومجدافي يومًا
أنا فتى صغير لكني اليوم مقاتل
شجاعٌ وحدي أواجه المخاطر
لن يهزمكم الموت أبدًا يا أحبتي
وسأعود أزرع زهور حديقتي
وأعيد البسمة على وجه أخوتي
فأنا البحار أصنع قدري بيدي

خـلال الأيـام التاليـة، لم يكـن سـليم ليهـدأ بركانـه أبـدًا، وبـدأت روحـه تبعـث مـن جديـد. بـدأ يقـوم صباحًـا بالعمـل عـلى تسـويق أعمال الفريـق الغنائـي، ومشـاركتهم الغنـاء وتأليـف الكلـمات، ويقـوم ليـلًا بالعمـل مـع جينـي عـلى تنظيـم الحفـل الضخـم المزمـع إقامتـه للفريـق. انهمـك مـع تلـك الفتـاة البارعـة جينـي وكأنـه قـد رزق حيـاة جديـدة. لم يعـد يهتـم لمرضـه، ولم يعـد يذكـر حقيبـة الذكريـات، وأصبـح نـادرًا مـا

يذهب إلى شارع إيدجوير، فلم يعد الوقت يكفي لذلك، بعد أن ازدحم بأعمال كثيرة يقوم بها بكل نشاط، وعلى الوجه الأكمل، وبدون مقابل سوى أن يرى ضحكات الأطفال تعلو، فيطير فرحًا. كان في كل ذلك يستمتع بوجوده بجوار جيني يساندها،ويشعر أنه أصبح ذو قيمة وقامة، بعد أن قضى أعوامًا من عمره مشردًا ضائعًا في شوارع لندن.

كان حب جيني يتعاظم في قلبه كل يوم، لكنه كان دائمايتحاشي أن يتحدث معها عن ذلك الأمر، وكذلك فعلت هي. لكن لم يكن المشاهد لهما وهما يتعاونان بكل قوة من أجل هؤلاء الأطفال ليخفى عليه إلى أين وصل بهما الحب، وإلى أية درجة ارتقت مشاعرهما، فأحالت حياتهما إلى شعلة من الضياء، والذي بدوره أحال حياة هؤلاء الأطفال من حياة بائسة في رداء المرض إلى بركان من النشاط والحيوية، وأصبح هناك هدف يسعى الجميع من أجل تحقيقه.

***

الفصل الثالث عشر

مزج الأرواح

قضى سليم وجيني الكثير من الوقت في سبيل تحقيق الحلم الذي خُلق من العدم. تلك الفتاة التي كانت بالأمس مشردة، إذا بها اليوم تقود دار الرعاية نحو غد أفضل، وتمسك بأيدي الأطفال المرضى نحو مستقبل لم يكن مطروحًا من قبل لهم كخيار. خلال الأسابيع التالية، ازداد عدد أعضاء الفريق حتى وصل إلى عشرين طفلًا وطفلة، وبدأ العاملون في الدار يشاركونهم حفلات يوم الأحد، وحرص مدير الدار على حضور تلك الحفلات، وأخذت الروح الجديدة تتعمق بين جنبات الدار.

كانت الاستعدادت تجري على قدم وساق للحفل الكبير المزمع تقديمه على مسرح الدار، والذي دعيت له جميع الشركات المنظمة، وسيحضره الأمير هاري بنفسه، تشجيعًا منه لنشاط

الـدار، ولحـث الـشركات عـلى التـبرع لرعايـة هـؤلاء الأطفـال، الذين نبذهـم الجميـع، وبعضهـم لا يعـرف أهلـه ولم يرهـم طـوال حياتـه. راحـت جينـي تقـترب كثـيرًا، فتتعـرف عـلى حالـة كل طفـل بشـكل كامـل، وتوطـد العلاقـة معهـم وبينهـم بشـكل كبـير، وشـارك جميـع العاملـين في جعـل المنـاخ مليئًـا بالحـب والتشـجيع، وتنويـع الأنشـطة وتنافسـها، لتتكامـل وتنتـج حيـاة أفضـل لمجتمـع الـدار. كان أسـعد النـاس جـراء ذلـك هـو مديـر الـدار السـيد سـميث، الـذي شـعر بـأن هـذه الفـترة هـي الفـترة الذهبيـة للـدار، وامتـلأت نفسـه بالامتنـان لجينـي، لأنهـا اسـتطاعت أن تبعـث تلـك الـروح الرائعـة في الجميـع، حتـى آسـبن السـكرتيرة الخاصـة بـه، فقـد أصبحـت نشـيطة تحـضر دروس الغنـاء مـع الأطفـال، بـل -ولدهشـته- بـدأت تهتـم بمظهرهـا، وتختـار الألـوان المتناسـقة لملابسـها، وتتعلـم الرقـص، وهـي التـي ظلـت طـوال حياتهـا منطويـة وتعمـل كالآلـة المبرمجـة.

وفي أحـد الأيـام، وبعـد إنتهـاء جينـي مـن دروس الغنـاء مـع الأطفـال، وأثنـاء تنـاول طعـام الغـداء، دعاهـا السـيد سـميث لتجلـس معـه عـلى نفـس المائـدة.

- جيني، أشكرك من كل قلبي على كل ما قدمتِه لنا

ثم أنه ابتسم وهو يكمل...

- لم أكـن أعلـم يـوم شـاهدت عزفـك في محطـة ويسـت منيسـتر، عـلى ذلـك الجيتـار الأسـود منـذ أكثـر مـن عامـين، أنـه مـن الممكـن

أن تكوني على هذا القدر من الموهبة والإبداع. بل لم أكن أعلم أبدًا أن تلك الفتاة المسكينة من الممكن أن تتحول إلى تلك الشعلة التي تضيء حياة كل هؤلاء الأطفال.

توقفت جيني عن تناول الطعام، فقد فوجئت بما قاله المدير عن أنه يعرفها جيدًا، وأنه التقاها قبل ذلك، وقت كانت تعيش حياة المشردين. سألته:

– هل كنت تعلم أني أعمل عازفة في المحطة قبل ذلك اليوم الذي أتيت إلى هنا؟!

أومأ الرجل برأسه علامة الإيجاب، ثم إنه أضاف:

– جيني أنت كنت تعبرين حياتك بدون أن تضعي هدفًا، وهذا ليس من شأني. لكنك الآن تعيشين من أجل هؤلاء الأطفال، وتساعدين في إبعادهم عن الحياة التي مررتِ بها. نريد وضع خطة محددة لكل طفل منهم كي يصنع مستقبلًا رائعًا لنفسه، وأنت قادرة على عمل ذلك، وأنا أضع ثقتي كلها بين يديك أيتها البارعة.

سكت للحظة، ثم أخذ يراقب وجهها وهو يقول:

– ولعلي أوجه الشكر ذات يوم للسيد سليم.. بالطبع، أليس هو من أحضرك لنا؟.. عمله هذا لن أنساه أبدًا

احمر وجه جيني خجلًا، ودمعت عيناها بعد ما سمعته من إطراء، ثم استجمعت حروفها وقالت:

– سيد سميث.. لست أدري من عليه توجيه الشكر، فأنت كنت تعرف حقيقتي من اليوم الأول، وبالرغم من ذلك عرضت عليَّ زيادة في الراتب، ومنحتني مكانًا لأسكنه، ووثقت في روحي رغم ما تعرف عن سابق إنكسارها. أنت إنسان رائع، وتذكرني بأبي الذي كان أحب الناس إليّ. لذلك، أعدك أن أحقق لك حلمك، وألَّا أتخلى أبدًا عن هؤلاء الأطفال، حتى نعبر بهم إلى الجانب الآمن من النهر معًا.

الأيام التالية لذلك الحوار حملت معها نشاطًا غير مسبوق.. فقد راحت جيني تعمل بكل كد، لتتعرف على مواهب الأطفال، وبدأت تستعين بسليم كي يبحث لها عن برامج لاختبار ذكاء الأطفال واكتشاف مواهبهم، وبدأت تقوم بعمل تحليل لسلوكيات هؤلاء الأطفال، بمساعدة المسئول عن الصحة النفسية، فاكتمل لكل طفل في الدار ملف يشمل كل البيانات التي أمكن جمعها عنه، وكل الدراسات التي قامت بها معه، وخطة تطوير مهارته والمجالات التي من الممكن أن يبدع فيها بالشكل المناسب لحالته الصحية. لقد استغرق ذلك مجهودًا كبيرا، لكن النتائج كانت رائعة بحق.

كانت الاستعدادات للحفل الكبير الذي سيقام على مسرح الدار قد أوشكت على الانتهاء، ولم يكن لدى سليم ولا جيني أي وقت للخروج معًا، في نزهة كتلك التي بدأت معها قصتها. لكن في الليلة التي سبقت الحفل، والتي سهر خلالها سليم

وجينـي في قاعـة المـسرح لمراجعـة الترتيبـات النهائيـة، وعندمـا انتهـت اللمسـات النهائيـة، وألقـت جينـي النظـرة الختاميـة لتراجـع كل تفاصيـل المـسرح، الـذي بـدا رائعًـا.. قبـل أن تغلـق البـاب، كان يقـف بجوارهـا سـليم، فأمسـكت يـده وهـي تقـول:

- شكرًا على كل شيء يا سليم... بل شكرًا يا علي.

نظـر لهـا سـليم، وكل معـاني الحـب التـي قرأهـا في الكتـب تنطـق بهـا عينـاه...

- أنـا المديـن بالشـكر لـك يـا جينـي، فأنـت المـلاك ذات العصـا السـحرية التـي تحيـي الأرواح أينـما حلـت.

اقتربـت جينـي منـه، ووضعـت يديهـا حـول عنقـه، وطبعـت قبلـة حانيـة عـلى خـده الأيمـن ثـم ابتسـمت قائلـة:

- سليم.. هل تتزوجني؟

متنوعـة هـي المشـاعر التـي انتابـت سـليم، فهـو يـكاد يطـير مـن الفـرح أن جينـي تحبـه لتلـك الدرجـة، ويـكاد يقتلـه الحـزن أنـه لـن يسـتطيع الـزواج منهـا بسـبب مرضـه.. ثـم مـا يلبـث حزنـه أن ينقلب فرحًـا، عندمـا يـرى نظـرة التحـدي في عينيهـا، ثـم يعـود ألمـا يعتـصر كيانـه عندمـا يتذكـر أنـه قـد يسـبب لهـا الأذى.. ثـم مـا يلبـث أن تتهلـل أسـاريره، عندمـا يعـرف أنهـا مدركـة لمـا طلبتـه، وأنهـا مدربـة عـلى التعامـل مـع حالتـه، كـما كانـت تفعـل مـع الأطفـال خـلال الفـترة الماضيـة. مـرر سـليم كفـه عـلى شـعرها وهـو يقـول:

- لا أستطيع أن أقدم على ذلك يا جيني، بالرغم من الحب الذي أحمله لك بين جنبات نفسي. لن أقبل أبدًا أن يصيبك ضرر بسبب الارتباط بي، ولو حدث ذلك فلن أسامح نفسي طوال عمري.. بل لعلي لن أعيش هذا العمر بعد ذلك.

ضحكت جيني وهي تقول:

- يا لك من طفل يا سليم! كل ما تقوله أعرفه جيدًا، ولكني أعرف حقيقة واحدة أخرى، وهي أني لن أستطيع الحياة من دونك. مرضك هذا أستطيع التعايش معه، بدون أن ينتقل لي، فلا تخف عليّ، فضع ثقتك فيّ، ولتستمع لصوت قلبي، الذي ظل لسنوات مشردًا وعلى يديك اهتدى.

غاب سليم في عالم غير العالم، وشعر بأن حب جيني قد حمله لآفاق بعيدة. لم يعد يشعر بمرض أو ألم، كان كل ما يشعر به هو أنفاس تلك الفتاة الرائعة وهي تقترب من وجهه لتقبله. حاول إخفاء شعوره، حتى لا يعطيها انطباعًا بالموافقة، لكنها لم تترك له الفرصة، بل حاصرت قلبه كصياد ماهر، فاستسلم سليم لصوت قلبه، ولذلك النداء الذي تردد في أعماقه يشجعه على الذهاب مع جيني، في رحلة خاصة إلى عالمها.

بعد صمت قال سليم:

- جيني.. أحبك يا صاحبة أجمل قلب عرفته طوال حياتي. أحبك منذ اليوم الأول الذي التقيتك فيه، ولكني لم أكن لأفسد حياتك أبدًا.

ردت جيني قائلة:

- بل أنت تنقذها، يا من جعلت من تلك الضائعة البائسة روحًا تمتزج بروحك، حتى تتطهر وتسمو فوق جراحها، ولا تقف أبدًا عند ماضيها مهما كان صعبًا.

ابتسمت وقالت له:

- هل أخبرك سرًّا؟.. إن لم تتزوجني، فمن ذا يرضى بأن يتزوج امرأة حياتها كلها مع أطفال مرضى الإيدز؟.. وأنا لن أتخلى عنهم أبدًا يا سليم. صدقني يا حبيبي، إن طريقنا واحد، وستكون رحلتنا معًا جميلة كأسطورة.

في اليوم التالي.. أقيم الحفل الغنائي، وكان رائعًا بشكل جعل الكثير من الوكلاء يعرضون على الفريق الغنائي القيام بجولة لدول العالم، بغرض جمع التبرعات لعلاج مرضى الإيدز. كانت جيني قد اتفقت مع سليم على إتمام إجراءات الزواج بعد الانتهاء من رحلتهم الغنائية، والتي استغرقت عدة شهور، سافر فيها الفريق ومعه سليم إلى العديد من دول العالم، لجمع التبرعات للمرضى. تلك الرحلة جعلت الفريق الغنائي بالفعل أشهر فريق في العالم، ذلك الحلم الذي أوجدته جيني في أول يوم لها مع الفريق، وقد أصبح واقعًا في حياتهم.

يقول أحمد:

بعد عودة الفريق، جاءتني الدعوة لحضور مراسم الزواج،

التي تمت في حديقة دار رعاية الأطفال. لقد تزوج سليم من الجميلة جيني، واحتفل الجميع بهما، وكان أسعد الناس في ذلك اليوم هو مدير الدار السيد سميث، والذي قام بتسليم جيني لزوجها سليم، الذي شعر في تلك الليلة بامتزاج روحيهما للأبد.

مضت الأيام سعيدة ومليئة بالعمل والنشاط، والكفاح لمساعدة هؤلاء الأطفال، حتى جاء يوم، بعد أكثر من سنة، اتصلت بي جيني.. وحملت مكالمتها الهاتفية مفاجأة لم أكن قد هيأت نفسي لها.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع عشر

التضحية

عندما اتصلت بي جيني في ذلك المساء، كانت قد اتخذت قرارها بالفعل. وبالرغم من السلام والسكينة الواضحان في صوتها، وهدوئها الموقن بقدر أجمل ستُمنحه في الغد، وبرغم كلمات تفيض بأنفاسٍ رجعها الحب، وكأنها كانت تتنفس روح سليم، الذي منحته الحياة فمنحها القدر أيقونة عمرها، فراحت تنشر الضياء حولها لتسعد هؤلاء الذين كانوا يحتاجون كفًا حانية تمسح دموعهم التي حفرت الأخاديد على وجناتهم وكهوفًا مظلمة في قلوبهم. تقول جيني...

– إنني أحبه حد النهاية، بل إنني أكاد أكونه، فكثيرا ما ارتميت بين أحضانه أدعو الله أن أمتزج يومًا بهذا الجسد فنصير معًا للأبد، فما أنا وهو سوى أنه قطعة مني، فقدتها منذ زمن قبل أن أعرف أنها هنا تعبر طرقات لندن تبحث عني هي الأخرى، والآن عادت لي فعُدت بها إلى الدنيا. لمسات سليم هي ما تمنحني الهدوء، وكفه هي

ما ينجدني من العواصف، وقلبه - وآه من هذا القلب الذي كان قدري أنني أسكنه كزهرة تتساقط أوراقها في كل صباح، وتذبل مع كل ليل، فإذا أمطار العشق ورياح الهوى وحرارة الحب تهب عليها لتحيا وتشرق للدنيا ثانية، وتزداد نضرة وجمالًا وتزدان بجواهر كلماته تاجًا من ضياء فوق مفرقها، فيعبر بها الناس متعجبين كيف لهذا الموات من حياة، وكيف للروح أن تعود لمن كان بقايا وأشلاء تمشي بين الموتى منذ سنوات، فإذا بها تبعث للحياة - هذه أنا وذلك سليم، وهذه الروح ليس لها إلا أن تسكن روحه للأبد.

يقول أحمد: كنت أمسح دموعي وهي تتحدث بلا توقف، وتود لو ظلت طوال النهار تصف حبها لهذا الرجل الذي كنت أعلم يقينا أنها له بعض حياة وهي له كل الحياة. وكنت أعتقد أنني أعلم يقينًا ما تريد أن تمنحه له في مشوار عطائها الذي اختارته واختارها، وآمنت به فألهمها السير ومنحها الأمن والدفء، إلا أنني لم أكن مستعدًا لموافقتها على ما أخبرتني به خلال تلك المكالمة الهاتفية، فقد كنت أعتقد أنها منحته حياته يوم النهر فإذا بها تأبى إلا أن تمنحه حياتها هي أيضًا. راحت كل محاولاتي لتغيير قراراها تتكسر على صخور شواطئ العشق التي ترسو عليها مطمئنة، فسليم كان برِّها، وروحه كانت شراعها، وكلماته أصبحت منارتها، فكيف لي بمواجهة مثل تلك القناعة الهادرة التي لا مكان لجدالها.

حاولت كثيرًا، لكنها أصرت على الذهاب بعيدًا في طريقها، وأصرت على أن تجعل أسطورة النهر حقيقة، وعلى أن تقوم بمنح كل ما يحمل أملًا لذلك الرجل الذي عشقته بكل كيانها حتى أصبح هو كيانها... سليم.

دون أن تخبر أحدًا، تقدمت للعمل كمتطوعة إيجابية للتجارب على أحد العلاجات الجديدة لمرض نقص المناعة المكتسب. اعتمد ذلك العلاج على زرع خلايا النخاع، من الأشخاص الذين ولدوا بمقاومة طبيعية للفيروس، في أجساد المرضى.. على أمل جعلهم قادرين على إنتاج خلايا مقاومة للفيروس. كانت تلك الأبحاث في بدايتها، ولم تكن قد أجربت بشكل كبير على المرضى. أخبرتني أنه تم رفض طلبها ذلك كونها غير مصابة بالمرض، لكنها ما كانت لتيأس أبدًا، فمهدت لأمر لا يقدم عليه غير هؤلاء الذين ارتضوا التضحية لهم سبيلًا. لقد قررت بكل جنون أن تمضي بعيدًا، بأن تنقل العدوى لنفسها من سليم، وبذلك تقبل في برنامج العلاج التجريبي. لم تصارح أحدًا بذلك، ولكنها أخبرتني. كنت أبكي وأن أعدها بعدم إخبار سليم!

يقول أحمد: بكيت بشدة في ذلك اليوم، وأنا أخشى أنها تعبر إلى مصير لن ينتهي إلى شاطئ، ولن يرمم جدارًا، ولن يصنع للمستقبل طوق نجاة لها أو لمن تحب. كنت أدرك أنها ستؤلم سليم كثيرًا، فكيف له أن يمضي في الحياة لو فشلت هذه المحاولة اليائسة، وهو يعلم أنها ضحت بحياتها من أجله، بل أوقن أن

ذلك الأمر قد يدفعه للتخلص من حياته، بعد أن يشعر بالذنب كونه كان السبب في مرض أكثر الناس حبًا له بهذا المرض.

أخبرتها أنني سأصل بعد أيام إلى لندن للقائها للتناقش في هذا الأمر، فصدمت عندما أخبرتني أن الوقت قد تأخر على ذلك، فهي بدأت تنفيذ خطتها بالفعل، وقد مضت ستة أشهر، وجاءت التحاليل إيجابية للفيروس. جعلني ذلك أبكي بشدة، كوني لم أستطع الوقوف إلى جوارها قبل أن ينتهي بها الأمر إلى هذا القدر. كنت أنتحب وتختنق كلماتي، في حين ظلت هي هادئة مرتاحة القلب والعقل، تعلم أن ثمة أشخاص تود لو منَحتَهم حياتك الف مرة ولا تندم.

يا الله! كم أنت رائعة رقيقة القلب يا جيني!.. ذلك ما كنت أردده في نفسي وأنا أنتحب، في حين سكن الهدوء كلماتها وسكنت روحها كبحار عاد إلى وطنه بعد تيه. كنت أتساءل، كيف لهذا الرجل الذي أحب تلك الملائكية أن يمضي في حياته حين يأتيه خبر بأقصوصةٍ تخبره أنها فعلت ذلك من أجله هو، بل كيف سيعيش وهو يحمل هذا الشعور بالذنب! لقد أرادت أن تصبح وسليم روحًا واحدة وجسدًا واحدًا، بل واختارت ذات القدر الذي أمسك بسليم في قبضته، فقررت أن يكون سليم ذاته قدرًا لها، ولتعاني ما عاناه، ولتعبر دربه وتشرب من كأسه، فكلماته حتمًا ستعيد لها الحياة، وقبلاته وهو يحتضنها لا يريد أن يتركها ستحميها من كل سوء.. وكيف لروحيهما أن يمتزجا إن لم تقدم على ذلك؟! إن كان قدره المرض، فليكن قدرها أيضًا.

لم أعد أملك غير الدعاء لهما بالنجاة بأقل الخسائر الممكنة من آثار هذه العاصفة. لقد قالت لي جيني:

- أريدك إلى جواري، لا أريد أن أكون وحدي، ولن أستطيع أن أخبر سليم بالأمر، وليس لي أصدقاء مقربين سواك، فهل أطمع منك في ذلك؟

بكيت وأنا أقول: بالطبع يا جيني، فأنت لي أكثر من صديقة، بل أنت كأختي، ولن أتخلى أبدًا عنك.

ضحكت جيني وهي تقول:

- أنت تجعل الأمر حزينًا يا أحمد.. لعلمك، الشعور بالحب قد أضاء روحي، ولا أكاد اشعر بأني قدمت شيئا يكافئ مقدار الحب الذي منحني إياه سليم، ولا تلك الرعاية التي احاطني بها، ولا دفء الصداقة الذي أشعر بها معك، فهون عليك. الأمر لا يزيد عن القدر المعد لكل منا، لا نستطيع حياله سوى أن نخطو فيه بشجاعة دون أن ننكسر أو نتراجع، وأنا قدري كان سليم وهؤلاء الأطفال الذين أصبحت أمًا لهم.

يقول أحمد: لم أملك غير الوقوف بجوارها. الجميع كانوا هناك إلى جوارها.. العجيب، أن أمها كانت هناك، وهي تبكي وتطلب منها أن تغفر لها ما حدث منها، وجيني تبتسم وهي ترفع كف أمها وتقبلها في ضعف. خارج غرفتها، وقف زملاء الحديقة رفقاء الضياع، وقد ألقى الحزن ظلاله على وجوههم، وتجمع بالقرب منهم أطفال الدار وهم يبكون ويتوسلون إلى

السيد سميث أن يفعل شيئًا لينقذها. كانت جيني قد أخبرته بما قامت به، ذلك أنها تعلم أنها تضعه في مآزق، لذلك فضلت أن تمنحه حرية اتخاذ القرار المناسب لمصلحة الأطفال.

يكمل أحمد...

تلك الفتاة التي عاشت وحيدة، ونذرت حياتها للنور، لم تكن لتذهب وحيدة أبدًا، فقد أراد القدر أن ينسج لها رداء من عطاء. فبعد أن فشلت نتائج العملية، علم سليم بما حدث، عندما أخبره السيد سميث مدير الدار بذلك،.وبالرغم من حزنه الشديد أثناء حديثه، إلا أنه التزم سياسة الدار، التي تمنع المصابين بالمرض من العمل بها، وأجبره ذلك على فصلها، بالرغم من صعوبة ذلك عليه شخصيًا.. لكنه التزم بالقواعد التي وضعت، حتى يحافظ على هؤلاء الأطفال.

كان تأثير الخبر على سليم مدمرًا، فقد راح يلوم نفسه أن تزوجها بحاله تلك. قضى أيامًا لاحقة لتلك المقابلة مع السيد سميث وقد راح يتآكل جسده في كل يوم، وتنزف روحه حسرة، ولا ينقطع بكاؤه ليلًا أو نهارًا. وأخيرًا، انهار جسده تمامًا، وتلاشى الحلم في صباح أحد الأيام، على إثر التهاب رئوي حاد من مضاعفات مرضه، وغيبه القدر إلى عالم آخر. وعندما سقط سليم، انهار حلمها، فنزلت هي الأخرى عن صهوة جوادها ،وغابت عن الدنيا لأيام، ولما أفاقت لم تحتمل الحياة طويلًا، فافترستها نوبة اكتئاب طويلة، واعتزلت الناس، ولم تفلح محاولات أمها التي أرادت أن تصلح خطيئة الماضي، لكن

لم يمر سوى شهور قليلة، حتى كانت جيني قد غادرت هي الأخرى، وكأن روحها لم تستطع العيش بدون تلك الروح التي منحتها قبلة الحياة ذات مساء، فغادرت في أثرها.

ترك سليم وصيته لي أن أحتفظ بحقيبة الذكريات الخاصة به، وأن أخبر أبناءه أنه لم يستطع التواجد بجوارهم حفاظًا عليهم وخوفًا على مستقبلهم، وأوصاني أن أبلغ مطلقته التي غادرها منذ سنوات، بدون أن تعلم أنه إنما اختار الهجر حتى يجنبها قدرًا أشد بأسًا، وظلت لا تعرف تفاصيل ما حدث له حتى يوم موته.

وقد تركت جيني وصيتها لي أيضا، وكانت تحمل عبارة واحدة...

«كلما مررت بلندن، لا تنس زيارة بوني ببعض حبات البندق.»

ولم أكن أعلم أنها حافظت على ود أصدقاء فترة الضياع بعد عملها بالدار سوى يوم المستشفى، حين شاهدتهم لما وقفنا أمام تلك البقعة التي أنارت باحتضان جسد تلك الملائكية. كانت علامات الفقد والحزن الشديد تخيم على الجميع وتعتصر قلوبهم. وحين زرتهم لاحقًا في حديقة بارني سباين، هناك على شاطئ النهر حيث مسكنهم، وجدت الحزن وقد سكن المكان، والألم وهو يمر بين الشجيرات، وكأن أشجار المكان كانت تنكس رأسها للأرض حزنا على رحيل جيني. والغريب، أن بوني فقد

شـهيته لحبـات البنـدق، وزاد هزالـه، وكأنـه أحـس برحيلهـا بـلا عـودة.

لقـد طلـب السـيد سـميث مـن نحـات معـروف صنـع تمثـال لجينـي مـع جيتارهـا، وهـي ترفـع في كفهـا المفتـوح ناحيـة السـماء تماثيـل صغـيرة للأطفـال السـبعة الأوائـل... تمثـال يمثـل الحلـم الذي كان عـلى الـدار أن تحافـظ عليـه، حتـى تـرضى روح جينـي وتسـكن في عالمهـا الجديـد. وضـع التمثـال في حديقـة الدار، ومـازال جميـع أطفال الفريـق الغنائـي هنـاك يتجمعـون عنـده صبـاح كل أحـد، فـيرددون تلـك الأغنيـة التـي كتبهـا سـليم ولحنتهـا جينـي، عـن ذلـك البحـار الصغـير، الـذي أبحـر شرقًـا حتـى ينقـذ أهلـه، وواجـه المخاطـر.

لكن البحار لم يعد من رحلته تلك أبدًا!

تمت

***